كل شئ عن

١٧

بعض البعثات العلمية الشهيرة



دار المعارف

مصريات مشتريات قلعة طرابلس ..

هذا الكتاب

يوجد فى كل عصر قلة من الرجال آتاهم الله شجاعة وإقداماً ، وحب استطلاع ، يكشف هؤلاء الرجال عن سر مدفون من أسرار الطبيعة التى حرصت على إخفائها سنين بل قروناً عديدة ، ويلاقون فى أعمالهم تلك أهوالاً تقشعر لها الأبدان ، ولا يصمد أمامها إلا كل شجاع ، ولولا هؤلاء الرجال لكنا لا نزال نتخبط فى ترهات الأساطير والخرافات بعيدين كل البعد عن الكثير من أمور عالمنا الذى نعيش فيه .

ويروى لنا هذا الكتاب فى أسلوب ممتع شيق قصصاً من قصص مغامرات أمثال هؤلاء الرجال ، فى كشفهم لأغوار المحيط ، وغزوهم لأعالى الجبال ، وكشف الستار عن سر قبر فرعون مصر توت عنخ آمون ، وتوغلهم فى الأدغال ، ومصارعتهم لحيوانات الأزمنة السحيقة ، وصراعهم للعواصف والثلوج فى بلوغهم القطب الشمالى .

كل شىء عن

٣٠٠

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية
القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٦٥
الطبعة الثانية : سنة ١٩٦٦
الطبعة الثالثة : سنة ١٩٧٦
الطبعة الرابعة : سنة ١٩٨١
الطبعة الخامسة : سنة ١٩٨٩
الطبعة السادسة : سنة ١٩٩٢

كل شيء عن
(١٧)

بَعضُ البَعْثاتِ العِلْمِيَّةِ الشَّهِيرَة

تأليف
رايموند هولدن

ترجمة
الدكتور سيد رمضان هدارة

دار المعارف

هذه الترجمة مرخص بها، وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation of ALL ABOUT FAMOUS SCIENTIFIC EXPEDITIONS by Raymond Holden. Copyright 1955 by Raymond Holden. First published by Random House, Inc New York

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف: رايموند هولدن

شاعر متمكن وقصصى وكاتب سير. ولكنه فى هذا الكتاب يروى لنا خمسًا من القصص الواقعية عن أشهر الرحلات العلمية المثيرة فى التاريخ.

وخلال الحرب العالمية الأولى خدم هولدن بسلاح الفرسان على الحدود المكسيكية. وبعد ذلك عمل فى الحكومة وفى عدة مجلات وفى أحد البنوك وأحد بيوت الاستثمار. كما عمل فى وكالة للسياحة وناقد للكتاب.

نشر له أول ديوان شعر عقب تركه لجامعة برنستون. ومنذ ذلك الوقت كتب روايتين وثلاثًا من القصص الغامضة. كما ألف كتابًا عن حياة لنكولن، وديوانين آخرين من الشعر.

وفى سنة ١٩٤٦ نشر كتابًا يضم طائفة مختارة من أشعاره. وهذا الكتاب «كل شىء عن بعثات علمية شهيرة» هو أول كتاب يكتبه للشباب.

المترجم: الدكتور سيد رمضان هدارة

حصل على درجة البكالوريوس فى الطبيعة الخاصة من كلية العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٤٢، وعلى درجة الماجستير فى الطبيعة من جامعة القاهرة عام ١٩٤٦، وعلى درجة دكتوراه الفلسفة فى الطبيعة من جامعة مانشستر عام ١٩٥٠ عمل بهيئة التدريس بكلية العلوم بجامعة القاهرة التى التحق بها منذ تخرجه. له بحوث علمية عديدة نشرت له فى المجلات العلمية. كما ترجم عددًا من الكتب العلمية، من بينها «العلم للمواطن» و «الطبيعة النووية».

كما ترجم هذه الجمعية كتاب «آفاق العلم» واشترك فى ترجمة كتاب «المبادئ الأساسية للفيزياء النظرية» وكتاب «كنوز العلم فى أسئلة وأجوبة» وهى من الكتب التى نشرتها هذه الجمعية.

مصمم الغلاف: إيهاب شاكر

محتويات الكتاب

مقدمة

يتميز الإنسان من بين المخلوقات الحية بقدرته على وضع الخطط وابتكار الوسائل للحصول على ما يحتاج إليه . فهو يتعلم كيف يصنع السفن والقطارات والسيارات والطائرات ، لأنه يحب التنقل بين الأماكن المختلفة ، ويتعلم في أسفاره المزيد عن العالم وما يحويه .

لكن السفن والسيارات والطائرات بذاتها لا تساعد الإنسان على حل جميع مشاكل العالم أو كشف الستار عن غوامض أسراره . فيريد الإنسان على أي حال أن يعرف أكثر من « ماذا » ، إنه يريد أن يعرف « لماذا » « وكيف » . وهو لا يقنع بمعرفة نفسه كما هي الآن ، إنه يريد أيضاً أن يعرف الكيفية التي آل بها إلى ما هو عليه . فيبحث ، إذن ، عن باب يقوده إلى الماضي ليبين له ما كان عليه ، ومن المحتمل أن يجد هذا الباب في قبر ملك من ملوك مصر القديمة .

ويمتد حب الاستطلاع عند الإنسان إلى المخلوقات الحية التي تشاركه في الأرض ، وقد يجد الباب إلى هذه المعرفة في غابات أفريقيا الممطرة ، أو في أجمات غينيا الجديدة ، وهو ينظر إلى جبل يبلغ علواً شاهقاً بحيث يبدو له أنه بعيد عن مناله . لكن الإنسان المحب للاستطلاع يريد أن يعرف ماذا تكون عليه الحال فوق هذا الارتفاع . وبذلك يبدأ مغامرة أخرى .

وسوف نحاول أن نروي في هذا الكتاب قصص بعض رحلات الإنسان في الطرق المؤدية إلى المعرفة ، تلك الرحلات التي أخذته إلى الصحاري والأدغال وإلى قمم الجبال وأعماق البحر .



رحلة إلى أعماق البحر

كرة بيب و ماروث الغواصة :

عندما وقف الإنسان على الشاطئ في العصور القديمة وحدّق ببصره نحو البحر بدا له أن ما يراه لم يكن شيئاً سوى الماء . مساحة شاسعة منبسطة من الماء الأزرق المشوب باللون الرمادى ! أما الآن فإننا نعلم أن البحر الخضم لا يوصف ببساطة بهذا الشكل ، فهو عالم قائم بذاته ، عالم مملوء بالحياة ، والعجائب والأسرار .

ولقد أحاط بنا دائماً ، نحن بنى البشر ، البحر من كل جانب ، وتخيله الأقدمون نهراً عظيماً ملتفاً حول اليابس كما تلتف الأفعى . ومن المحقق أنه على الرغم من أن البحر لا يجرى فى مجرى مثل النهر ، فإنه يحيط باليابس ويغطى الجزء الأعظم من الكرة الأرضية .

ولا بد أن الأقدمين تساءلوا منذ الأيام الأولى للبشرية ، عما إذا كانت هناك نهاية للمساحات المائية الشاسعة ، لكنهم لم يقفوا عند حد التساؤل ، بل إنهم

يلغوا ما كانوا يصبون إليه ، فتعلموا طريقة صناعة السفن وكيفية الإبحار بها ، وتعلموا استخدام البوصلة ودراسة النجوم لكي يعرفوا اتجاه سيرهم .

واكتشفوا فى غير سرعة ، ما كان فى الجانب الآخر من المياه ، وعرفوا كل ما يمكن معرفته تقريباً عن سطحها . إلا أن البحر ظل سراً غامضاً ، إذ أنه لم يكن شاسعاً فى مساحته فحسب ، بل كان عميقاً بعيد الغور . فأعمق بقعة فى قاع البحر تبعد عن سطحه بما يفوق ارتفاع أعلى جبل فوق الأرض . فيبلغ عمق إحدى بقاع المحيط قرب اليابان حوالى ١٠٥٠٠ متر ، أى عشرة كيلومترات ونصف كيلومتر . ويربو متوسط غور البحر على ٣٫٢ كيلومترات .

وإذا علمنا أنه حتى عام ١٩٣٠ لم يتمكن أى إنسان حى من الغوص إلى عمق أبعد من ١٥٠ متراً من سطح الماء ، يمكننا أن ندرك السبب فى أن البحر لم يستكشف استكشافاً تاماً . ولندرس الآن بعض أسباب ذلك :

أولاً : لأننا لا نستطيع التنفس تحت الماء كما يعرف كل من حاول السباحة ، وإذا حاولنا ذلك فإننا نغرق . كما أننا لا نستطيع التوقف عن التنفس حتى نبلغ عمقاً بعيداً .

ثم إن الماء ، بالإضافة إلى ذلك ، ثقيل جداً ، فهو أثقل من الهواء بكثير كما يعلم أى شخص حاول أن يرفع دلواً مملوءة بالماء . وكلما غصنا إلى أعماق أبعد ازدادت كمية الماء التى تتراكم علينا . كما أن البحر بالغ البرودة ، وحالك الظلمة فى الأغوار البعيدة.

إننا نستطيع أحياناً أن نرى الشمس ساطعة على قاع بركة ضحلة ، وقد يؤدى بنا ذلك إلى الظن بأن الضوء ينفذ من الماء كما ينفذ خلال النافذة الزجاجية . ولكن هذا غير صحيح . فأشعة الشمس لا يمكنها النفاذ إلى الأعماق البعيدة فى البحر ، ولا يوجد ضوء مطلقاً فى الأماكن العميقة .

على أن الناس كانوا ، منذ أزمان بعيدة ترجع إلى الإسكندر الأكبر ، أى إلى ما قبل المسيح بثلثمائة عام ، يفكرون فى كيفية بلوغهم قاع المحيط ليروا

ما يجرى هناك . ويعود السبب فى تشوقهم هذا إلى القصص التى كانت تروى دائماً عن المخلوقات البحرية الغريبة التى كانت توجد على الشاطئ ، أو مكبلة فى شباك الصيادين ، وربما ظن الناس أن ظلمة البحر البارد العميق لا تزال تخفى ما هو أغرب وأعجب .

لم يكن حب الاستطلاع هو السبب الوحيد لتشوقهم لاستكشاف قاع المحيط . فكان بعض الناس يرغبون فى النزول إلى قاع المحيط لمجرد الشعور بالإثارة بأنهم ذهبوا إلى حيث لم يذهب أحد قبلهم ، ورأوا ما لم ير أحد قبلهم قط . وكان بعضهم يرغب فى العثور على كنوز ثروات المراكب الغارقة والحصول عليها ، وهناك بعض آخر رغب فى استكشاف بعض الأمور عن سر الحياة التى يحتمل أن تكون قد بدأت فى أعماق البحار .

ولقد بدأ الناس منذ زمن قديم محاولة الوصول إلى طرق الغوص إلى أعماق البحار . وكانت أمنيتهم الوحيدة هى القدرة على التنفس تحت الماء مثل الأسماك والمخلوقات البحرية الأخرى ! وحيث إن هذه الأمنية كانت مستحيلة فقد تحتم أن تعتمد محاولات الإنسان فى بحث أعماق البحر على الهواء الذى يسحب إلى داخل الماء .

فنحن نعلم أننا إذا احتفنا الهواء بأيدينا فى أثناء وجودنا فى الماء ، ثم قلبناها وضغطنا بها إلى أسفل فى الماء ، فإننا بذلك نحمل الهواء تحت السطح . ولقد كان الغواصون الأولون يعرفون هذه الحقيقة فاستخدموا لهذا الغرض أشياء مختلفة مثل الدلو أو البرميل . فعندما تقلب هذه الأشياء تحت الماء تمسك بالهواء داخلها . وإذا ما زج الغواصون برءوسهم فى هذا الهواء فإنهم يصبحون قادرين على التنفس . وهذه الطريقة ، التى نجحت فى المياه غير العميقة ، هى أساس عمل خوذات الغوص المستخدمة فى وقتنا الحاضر .

ومهما يكن من شىء فالبقاء تحت الماء أمر يكتنفه الكثير من المشاق والمتاعب ، فكلما ازدادت كمية الهواء الخفيف الوزن الذى يحمله الغواص

يزداد الثقل الذى يجب أن يزود به لكى يبقى تحت الماء . ولقد حل اختراع لباس الغوص الذى يمكن دفع الهواء فيه من أعلى الماء هذه المشكلة بالنسبة للأعماق التى تصل إلى ١٥٠ متراً .

إننا لم نتعرض بالكلام حتى الآن للغواصات ، وربما يبدو أنه نظراً لأن الغواصات يمكنها أن تحمل الناس وتجوب بهم تحت أمواج البحر بتأثير قدرتها الذاتية ، فقد يكون فى ذلك حل المشكلة . وعلى أى حال فإن قصة جول فيرن تحكى لنا أن الكابتن نيمو قطع ٢٠,٠٠٠ عقدة تحت البحر فى الغواصة نوتيلس ! ورب قائل ، من قراء هذه القصة ، يقول : « إن كل ما يتطلبه استكشاف أعماق المحيط هو تحسين السفن الغواصة والوصول بها إلى الكمال . وعلى أية حال فعلى الرغم من أن الغواصات أحرزت تقدماً عظيماً فإنه لم تتمكن أى غواصة حتى الآن من العمل بأمان فى أعماق تزيد على ١٥٠ متراً تحت سطح الماء .

وفى العقد الثالث من هذا القرن انخرط الدكتور وليم بيب مدير قسم بحوث المناطق الحارة فى جمعية علم الحيوان بنيويورك فى صفوف أولئك الذين كانوا يحلمون بزيارة أعماق البحار ، ولقد أمضى الدكتور بيب وقتاً كبيراً يجوب المحيط ، منتشلا أحياءه بالشباك ، ومكتشفاً أسماكاً وصوراً أخرى من الحياة لم تعرف قط من قبل ، كما أنه تعلم فى تلك الرحلات حقائق جديدة عن الأنواع المألوفة . وعلى الرغم من المجموعات القيمة الوفيرة التى حصل عليها فإنه كان يعلم أنه ينقصه أكثر مما حصل عليه ، فظل يحلم برحلة شخصية إلى أعماق البحار عسى أن يرى بعينيه الحياة فيها .

وللوصول إلى هدفه صمم عدة أسطوانات غوص معدنية ، لكنه سرعان ما تحقق أنها لا يمكنها أن تتحمل ضغط الأعماق البعيدة المخيف ، إذ يزداد الثقل الواقع على البوصة المربعة من السطح الخارجى للأسطوانة بمقدار ١٥ رطلا كلما ازداد عمقها ٣٣ قدماً . وبالنزول مسافة نصف ميل تحت الماء تتعرض كل بوصة مربعة إلى ضغط يزيد على الطن ، ولقد كان بادياً أن المشكلة من

المشكلات التى لا حل لها .

إلا أنها حلّت ، وقد جاء حلّها على يدى رجل يدعى بارتون ، وهو الذى أصبح مصاحباً للدكتور بيب فيما بعد . كان أوتيس بارتون من المشغوفين بالتصوير تحت الماء ، وكان هو الآخر يتوق إلى وسيلة للوصول إلى أغوار أعمق مما يمكن لخوذة الغوص أن تحمله إليها ، وبحلول عام ١٩٣٠ أمكنه توفير المال الكافى ، كما أمكنه الوصول إلى أفكار كافية لإثارة اهتمام إحدى شركات الهندسة البحرية . فعمل مع الكابتن جون بتلر ووصلا إلى حل اعتقدا أنه هو السبيل العملى لاستكشاف المحيط . ولقد كان الأساس فى فكرة بارتون هو أن الأجسام الكرية تتحمل ضغوطاً تفوق الضغوط التى تتحملها الأجسام ذات الأشكال الأخرى . وعقد بيب وبارتون عزمهما على العمل معاً فى محاولة عمل ما لم يستطع عمله أى إنسان من قبل .

من كان يصدق أن كرة جوفاء من الصلب يقل قطرها عن ١٥٠ سنتيمتراً ويبلغ سمك جدارها ٣,١٧ سنتيمترات تقريباً يمكنها أن تحمل بأمان رجلين إلى أغوار المحيط المجهولة ؟ لقد ساور الشك كثيراً من الناس — بما فيهم بيب وبارتون نفساهما — أن شيئاً من هذا يمكن حدوثه ، لكن هذين المكتشفين عقدا العزم على التحقق من ذلك . وكان أول ما أراده الدكتور بيب هو إيجاد اسم لهذا الجهاز الغريب ذى الأعين الكبيرة الثلاث المنبثقة منه فجعلته شبيهاً بسرطان البحر . فقرر أن يكون الاسم الإنجليزى مكوناً من كلمتين وصلهما بعضهما ببعض ، وهما الكلمة الإنجليزية « للكرة » مضافاً إليها اللفظ الإغريقى « للعمق » فأصبح اسم الجهاز « كرة الأعماق » .

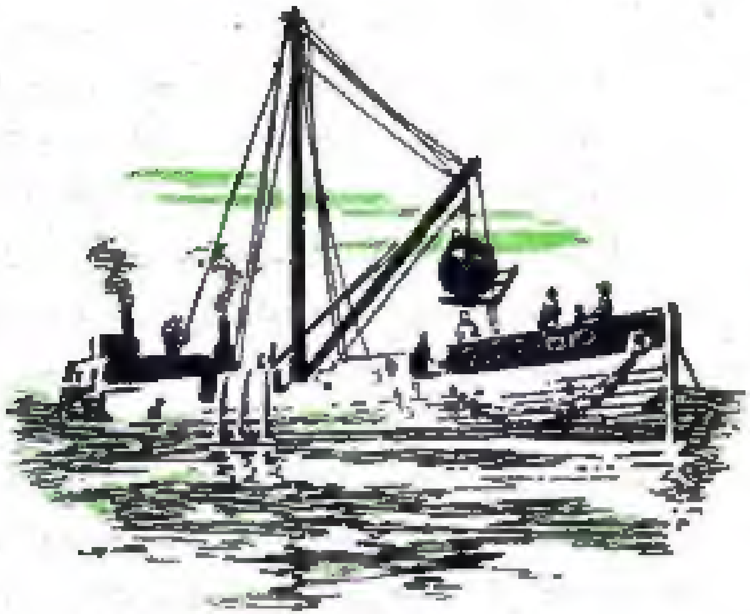
اصطحب بيب معه فريقاً من العلماء والميكانيكيين إلى جزيرة نونسش ببرمودا حيث كان يوجد معمل بحوث تابع لجمعية علم الحيوان بنيويورك ، وهو المكان الذى تدرس فيه موضوعات الأحياء البحرية .

ولقد استلزمت هذه المخاطرة كمية هائلة من المعدات ، فأخذ الدكتور بيب



معه قارباً بحرياً وصندلا مكشوف السطح مزوداً برافعة وآلة بخارية وبكرة ضخمة للف الأحبال الصلب التي تدلى بوساطتها كرة الأعماق إلى باطن البحر .

ولقد أسهم بارتون بنصيب في هذه المعدات فأحضر الكرة ذاتها وأكثر من ٨٠٠ متر من الحبل المصنوع من الصلب بقطر قدره $\frac{7}{8}$ بوصة ، كما أنه أسهم بحبل من المطاط الأصم مدفون في باطنه مجموعتان من الأسلاك الكهربية . خصصت إحداهما للإضاءة الكهربية والأخرى للتليفون . ولقد كان ذلك ضرورياً لكي يتمكن الرجال الموجودون في كرة الأعماق من التحدث إلى معاونيهم الموجودين على سطح الماء . وكانت الإضاءة الكهربية لازمة أيضاً لإضاءة البحر المظلم خارج الكرة .



الصندل البحرى على أهبة الإبحار من جزيرة نتصتش ببرمودا

والآن فلنلق بنظرة على سطح الصندل « ريدى » في أثناء تهاديه فوق سطح المياه الهادئة على بعد ١٣ كيلومتراً من جزيرة نتصتش ببرمودا في صباح أحد أيام شهر يونية عام ١٩٣٠ . فنجد السطح الخشبي القديم يتهادى في مهب الرياح تسحبه قاطرة بحرية بخارية ، في حين أن أعضاء البعثة وعددهم تسعة عشر ، بالإضافة إلى الدكتور بيب والمستر بارتون يهرعون في إعداد معداتهم .

ويسود عقول الجميع الشعور بالانفعال والإثارة ، كل فرد منهم عليه واجب يؤديه ، فعلى أحدهم ملاحظة الحبل الصلب ، في حين نجد كثيرين آخرين مهتمين بأمر الحبل المطاط المحتوى على الأسلاك الكهربية ، وكان على اثنين آخرين تشغيل الرافعة وملاحظة مراجل الآلة البخارية المخصصة لإدارتها ، ولايزال هناك الآخرون الذين تنتظرهم أعمال كثيرة عند بدء النزول الحقيقى ، متأهبين لمد يد العون والمساعدة .

ويفحص بارتون والدكتور بيب كرة الأعماق ليتحققا من أن كل شيء على ما يرام. ولم يكن جلوسهما مريحاً، فاتساع الفتحة التي يدلفان منها إلى داخل الكرة يبلغ ٣٧ سنتيمتراً فقط، كما أنها محاطة بمسامير كبيرة بارزة، وعلى من يريد الدخول في الكرة أن يزحف دافعاً برأسه أولاً بين تلك المسامير ثم خلال الفتحة.

وكان عمق البحر تحت الصندل أكثر من ١٦٠٠ متر من الماء، ولم يساور المستكشفين أو باقي الفريق الشك في أن كرة الغوص يمكن أن تدلى إلى العمق الذي يسمح به الحبل الصلب. ولكن لم يمكن لأي واحد منهم أن يجزم بأن الغواصين سوف يكونان على قيد الحياة عند رفع الكرة إلى السطح ثانية. فربما لا تتمكن كرة الأعماق من تحمل ضغط الأعماق الهائلة، بل ربما تتسرب مياه البحر المظلمة الباردة من أطراف نوافذها وبابها، وربما تنفذ عند الوصلة التي تدخل منها الأسلاك الكهربائية إلى داخل القشرة الصلبة، فمن المحتمل أن تنهار الوصلة المحكمة، التي لا تتسرب منها المياه عند سطح البحر، تحت الضغط المفزع البالغ ستة ملايين ونصف مليون من الأرطال على عمق ربع ميل. لكن هذين المستكشفين كانا عالمين وليسا شيطانين جريئين، فلا بد أنهما كانا يعرفان الإجابة عن كل سؤال قبل المخاطرة بروحيهما.

وعلى ذلك أحكم إقفال الوحش الكبير ذي الأعين السرطانية يوم ٣ من يونيه عام ١٩٣٠ دون أن يكون أحد بداخله وقذف به في الماء، وأخذ يغوص في الماء رويداً رويداً، وكان مرئياً على عمق ٢٢,٥٠ متراً أو ٣٠ متراً في المياه الصافية، ثم اختفى في الظلام. وعقب خمس وأربعين دقيقة كان قد تدلى من الحبل الصلب ما طوله ٦٠٠ متر، وبذلك تكون كرة الأعماق معلقة في منتصف المسافة إلى القاع تقريباً! وإذا كان من المقدر أن يحدث أي شيء لكرة الغوص الضخمة، فإنه يكون قد حدث فعلاً أثناء ذلك الوقت. وعلى ذلك أعطى الدكتور بيب الإشارة لرفعها.

ولاحظ الدكتور بيب في أثناء لف الحبل الصلب أن أمراً قد حدث،

فقد وجد أن الحبل المطاط المحتوي على الأسلاك الكهربائية، والذي كان مثبتاً في الحبل الصلب الذي تتدلى منه الكرة، التف حول الحبل الصلب، ونتيجة لذلك لا يمكن لف حبل الرفع حول البكرة دون تهشيم الحبل المطاط بما فيه من أسلاك التليفون والإضاءة، اللذين بدونهما لا يمكن مواصلة محاولة الغوص. ولا يوجد مخرج من ذلك إلا بعمل الحبل المطاط على شكل ملف كبير، طوله ٨٠٠ متر، حول الكرة ذاتها.

وخفق قلب بيب، وبدأ يتساءل عما إذا كان للإنسان أن يجازف بالوصول إلى تلك الأعماق البعيدة في باطن البحر. ولحسن الحظ تم إصلاح الحبل المطاط وفصله عن الحبل الصلب في أربع وعشرين ساعة من العمل المضني، ووضع على شكل لفات كبيرة فوق سطح الصندل. ولقد تبين من الاختبارات التي أجريت أن الدائرة الكهربائية لم يصبها ضرر ما.

وبعد ثلاثة أيام سمحت شمس برمودا بتجربة غوص جديدة، كانت في هذه المرة إلى عمق ٤٥٠ متراً. وسارت الأمور سيراً مرضياً، ولم تتعقد الأحبال فكان سلوكها حسناً للغاية، ولم يتسرب من الماء إلا قليل لا يتجاوز ملء فنجان القهوة.

ولم يعد هناك أي سبب للتأخير، فإذا كانت الكرة الفارغة يمكنها الوصول إلى ذلك العمق، فكذلك يمكن أن يتم نفس الأمر للرجلين اللذين صنعا كرة الغوص. فدلف بيب وبارتون داخل الكرة وهما يرتجفان من برودة أرضيتها المصنوعة من الصلب، وجلسا القرفصاء بالدرجة التي مكنتهما منها الغرفة الكروية. وكان الأمر شبيهاً بوضع رجلين في حوض الحمام «البانيو» ثم تغطيته بحوض آخر مقلوب.

ولقد أخذا معهما مستودعين للأكسجين وأطباقاً تحتوي على مواد كيموية لامتصاص الرطوبة وغاز ثاني أكسيد الكربون الخارجين مع هواء زفيرهما، وكان الأكسجين الذي ينبعث ببطء من المستودع يحل محل ما يستهلكه الغواصان

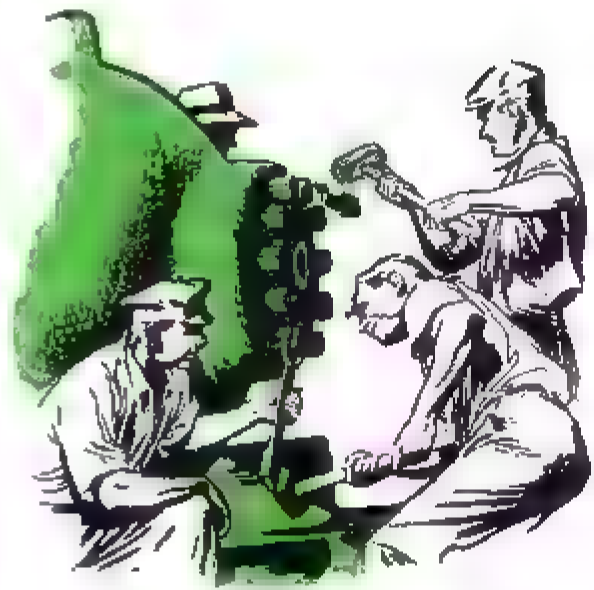
من هواء الكرة . ولقد كان ذلك الإجراء ضرورياً حيث لم تكن هناك أنبوبة للهواء تصل الكرة بسطح الماء كما هي الحال في خوذة الغوص العادية .

وسرعان ما استقر المستكشفان حيث قبع بيب قرب إحدى فتحات الكرة السرطانية وقبع بارتون حيث كان يمكنه ملاحظة الآلات والأجهزة . وبدأ الفريق في الخارج في إحكام المسامير الصلبة في الباب المصنوع من الصلب الذي كان يزن ١٨٠ كيلوجراماً . وكان عليهم أن يطرقوا مفاتيح الربط بالشواكيش لكي يحكموا ربط المسامير إحكاماً تاماً . ويمكن أن نتصور الصوت الذي أحدثه ذلك داخل الكرة الصلب المحكمة الإغلاق ! ويقول الدكتور بيب إن ضجيجه كان من أمقت الأصوات التي طرقت سمعه . ولكنه ما إن انتهى من الاحتجاج على ذلك تليفونياً حتى كان كل شيء قد انتهى .

ودارت عجلة الآلة الرافعة ببطء فارتفعت الكرة الصلب ذات الطنين ونصف الطن بركبيها المتراقصين في الهواء ، ثم طوحت فوق البحر ، وبإشارة من القبطان عكس دوران الرافعة وأنزلت الكرة نحو الماء . فارتطمت بالسطح وغاصت في باطن الماء محدثة فوراناً من الفقاعات والزبد كسا سطح البحر باللون الأخضر .

كان بيب ينظر من وراء النافذة ذات الزجاج « الكوارتز » الذي يبلغ سمكه ٧,٦٢ سنتيمترات . ورأى قاع السفينة يختفي من فوقه ببطء حتى غاب عن بصره كلية في الهاوية . كما اختفى معه العالم الخارجي فلم يعد هناك إلا الفضاء ، كما لو كان الغواصان يستقلان مركبة فضاء صاعدة إلى أعلى بدلا من أسفل ، إلا أن هذا الفضاء كان مملوءاً بالماء . ووصلت الكرة هبوطها ١٥ متراً ! ثم ٣٠ متراً ! ثم ٦٠ متراً

وعندما وصلت الكرة إلى عمق ٩٠ متراً صدرت صرخة عن بارتون ، فقد لاحظ تسرباً بسيطاً للمياه من تحت الباب المحكم ، ففحصه بيب بعمق ، ووجد أن التسرب لم يتزايد إلا أنه كان يعرف أن الضغط المسبب له كان يزداد كلما





الدكتور بيب من وراء نافذة كرة الغوص

يزداد العمق الذي يهبطان إليه . ولم يكن أمامهما ما يمكن عمله إلا أن يواصلا الهبوط ويريا ما يحدث . فاستمر في الهبوط ، وتقلب خضرة خارج النافذة الكوارتزية إلى الزرقة

وسرعان ما غطيا أبعد عمق وصل إليه غواص من قبل ، ومن هنا بدأ الاستكشاف الحقيقي . وكان ما هما مقدمان على رؤيته ابتداء من تلك اللحظة ، عالماً جديداً لم يره أحد غيرهما من قبل . فتحولت زرقة المياه في الخارج تدريجاً إلى السواد



قطرة ماء تتسرب من تحت الباب

وكان بيب أو بارتون يصوب مصباح الكهربي بين لحظة وأخرى ليرى تسرب الماء من تحت الباب . ترى ألم يكن الأمر يبدو خطيراً حقيقة ؟ أم أنهما أرادا أن يعتقدا ذلك ؟ وعلى عمق ٢٤٠ متراً أصدر بيب أمره بالتوقف عن الهبوط ، وجلس في الظلام برهة يفكر . لقد كانا مستريحين ، وكان الهواء يسير سيراً حسناً ، ولم يبد أن تسرب الماء آخذ في الزيادة . ولكن فجأة وبدون أي سبب ، خالطه شعور قوي ، بعدم الاستمرار ، فأعطى الإشارة للرفع

ولقد عرف فيما بعد ما كان يمكن أن يحدث لو أنهما قررا الهبوط إلى عمق أبعد ، وذلك عندما أجريا تجربة غوص بكرة فارغة حيث أحكمت الكرة في هذه المرة وأسقطت إلى عمق ٩٠٠ متر ، ثم رفعت بعد ساعة وأربعين دقيقة

فما إن ظهرت الكرة معلقة فوق السطح مستعدة لإنزالها عليه لفحصها

حتى لاحظ الدكتور بيب في الحال أن أمراً قد حدث . لقد كان هناك تدفق بشدة من وجه إحدى النوافذ . وعندما استقرت الكرة على سطح المركب وجد بيب أنها مملوءة تقريباً بالماء .

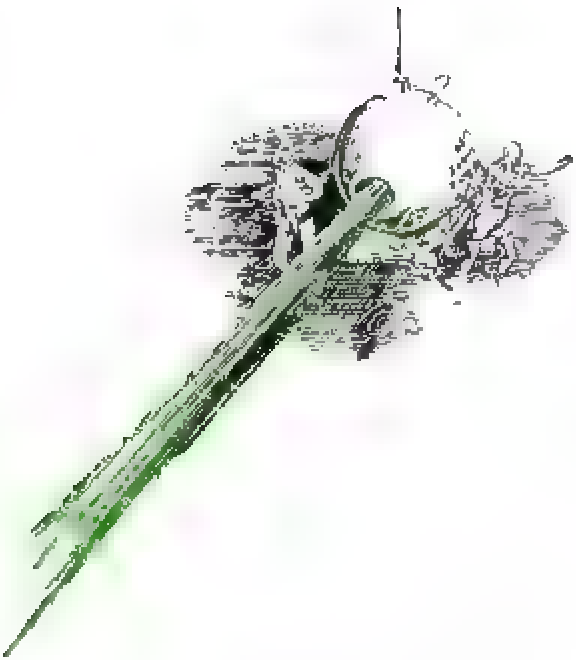
وإليك ما حدث : كانت الكرة قبل الغوص مملوءة بالهواء ، وعندما اندفعت المياه إلى داخل الكرة ضغطت الهواء بحيث أصبح طبقة رقيقة في الجزء العلوي للغرفة الكروية . وكان هذا الهواء ثائراً فكان يريد أن يتمدد إلى حجمه الأصلي ، ولذلك كان يتصارع مع الماء الذي حل محله .

ولقد تمكن الدكتور بيب من رؤية المياه الفائرة في أثناء صراع الهواء في الخروج من الثقب الضئيل الذي تسرب منه ماء البحر . فبدأ في فك المسمار الأوسط للباب الصلب ، عندئذ بدأ الهواء الصاخب في الزئير والصرير وطرد الماء المختلط به إلى الخارج خلال ثقب المسمار ، محدثاً سحابة من الرذاذ المصحوب بالأزيز .

ولقد أمر بيب الجميع بالابتعاد عن الكرة تحسباً مما كان يمكن أن يحدث ، ثم أدار هو ومعه مساعد له يد المسمار النحاسية . فازداد اندفاع الماء الزائد المختلط بالهواء ، وفجأة انفلت المسمار من أيديهم مندفعاً بعرض سطح المركب كقذيفة المدفع ، وتبعه عمود من الماء في صلابة الحديد ، ولو أن بيب كان واقفاً في طريق المسمار أو عمود الماء عند اندفاعهما من الكرة لتمزق جسمه إرباً .

وفرح كل رجل من رجال الفريق لعدم وجوده في الكرة الصلب عندما كانت على عمق ٩٠٠ متر حيث بدأ الهواء المحبوس والمياه العميقة في صراعهما ولقد كان السبب في المشكلة هو أن لوح الكوارتز الجديد لم يكن قد أحكم وضعه في إطاره .

وبعد مضي أربعة أيام أنزلت الكرة وهي فارغة إلى عمق ٩٠٠ متر ولم تنشأ مشكلات في هذه المرة ، فدلف بيب وبارتون داخل الكرة الصلب وأغلق



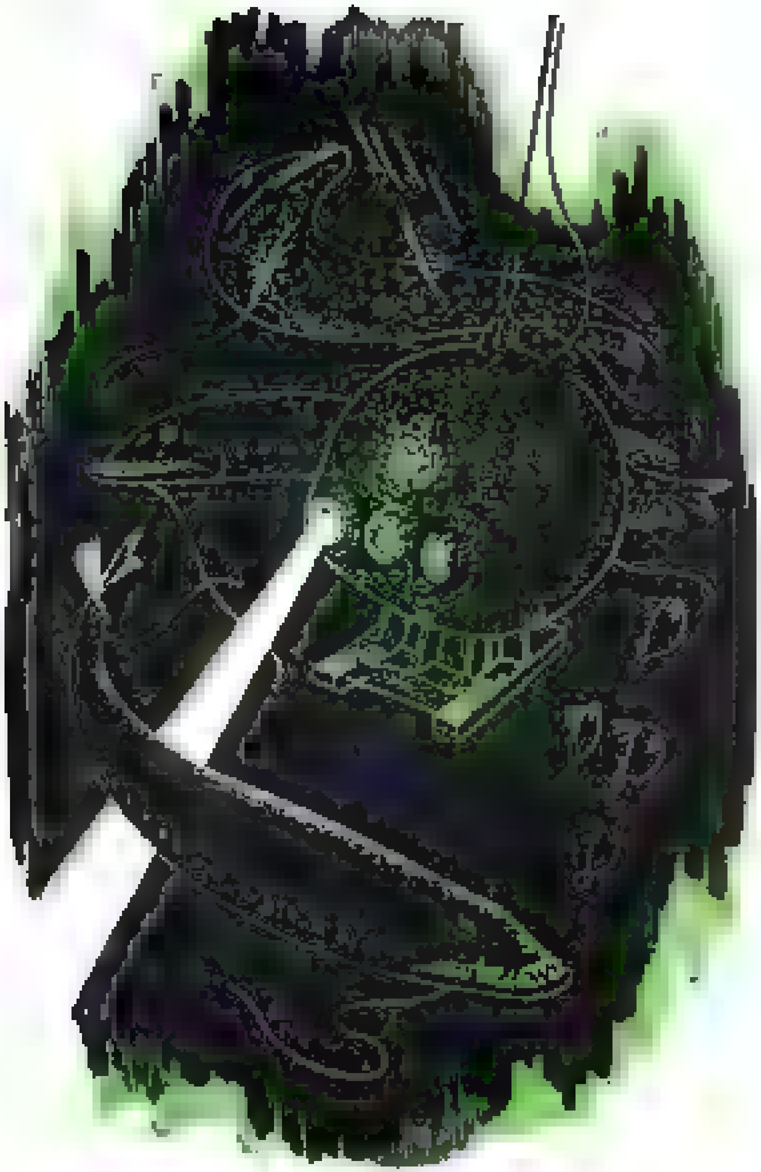
وفجأة انفلت المسمار من أيديهم مندفعاً بعرض سطح المركب كقذيفة المدفع

مرة أخرى نحو العالم المجهول. وتعطل التليفون على عمق ٧٥ متراً، وأصبح الغواصان بدون الأصوات الآتية إليهما من العالم الخارجي في وحدة قاتلة لا حول لهما ولا قوة، ولكن لحسن الحظ أن الضوء الكهربي كان لا يزال يعمل. فلقد تمكن من إرسال إشارة ضوئية كان قد نسي الإعلان عنها، وفهم منها الفريق الموجود على السطح أن بيب وبارتون يرغبان في أن يرفعا إلى أعلى.

وفي ١١ من يونيه كان الطقس حسناً للغاية وأقلع المستكشفان نحو الأعماق دون أن يبديا فكرة قارعة أولاً، وأحس بيب أنهما أصبحا يعرفان القدر الكافي لتشجيعهما، وبدأ تفكيره في فرص هبوطهما ثم عودتهما يقل، في حين ازداد تفكيره في النظر من خلال النافذة والبحث عن دلائل الحياة. ولم ير حتى تلك اللحظة أي شيء لم يمكنه رؤيته من سطح الماء، وأصبح هو ورفيقه مستكشفين

وعلى عمق ٦٠ متراً رأى بيب في هذه المرة سمكة أمكنه أن يعرفها، وهي القرش المعروف في مياه برمودا، ولكن كان يجب أن تكون ذات لون أزرق قاتم تزينه أشرطة أفتح لوناً، لكن هذه السمكة لم تكن كذلك، بل كانت بيضاء ناصعة ذات أشرطة سوداء. وقد ظهرت دلالة أخرى على الفرق بين العالم الأرضي وعالم الأعماق، فمعنى الألوان كانت مختلفة، فنحن نرى الألوان حيث يوجد الضوء فقط كما نعلم

وعلى عمق ١٢٠ متراً رأى أول سمكة من أسماك الأعماق، سمكة لم يرها حية على الإطلاق على السطح، رآها تعوم أمام النافذة، وأصبح عالم البحر سمكة كلها سحر وأسرار مملوءة بالشرر البراق، فمن أسماك ذات شعاعات ضوئية ممتدة على جوانبها! إلى مخلوقات شفافة ذات بطون ممتلئة حمراء متوهجة! وقواقع ذهبية ليس لها أصداف ترفرف بأجنحتها وتطير، وأسماك عصية نحيلة وسامة! وجرذ البحر الذي كان يبعث بسحابات من الضوء كما لو كان مدفعاً مائياً مملوءاً بسائل ناري



مخلوق [illegible]

وواصلت كرة الأعماق هبوطها ببطء وانتظام وعلى عمق يزيد على ٣٠٠ متر كشفت الأنوار الكاشفة القوية التي كانت تنبعث من إحدى النوافذ الكوارتزية عن سمكة غريبة ذات أضواء تميل إلى الخضرة على جانبيها ، ولم يكن الدكتور بيب أو أي شخص آخر قد رأى مثل هذه المخلوقات من قبل

وعلى عمق ٣٩٠ متراً ، كان البحر مثل الليل مليئاً بالنجوم السهمية والصواريخ المنفجرة ، وكانت تقترب من النافذة أحياناً مخلوقات غير معروفة تعوم نحو النافذة ثم تنفجر إلى وابل من الشرر

وفي ظلام البحر يحمل كل شيء ، تقريباً ضوءه نيره ويطفئه حسب إرادته وكانت معظم المخلوقات ، وليس كلها تماماً ، تظهر فترة في أشعة الأضواء الكاشفة المنبعثة من كرة الغوص ، فتمكن الدكتور بيب من رؤية حدود أجسام مخروقات ضخمة معتمة تنحني من الضوء ترى ماذا كانت تلك المخلوقات ؟ إننا سوف نعرف شيئاً عنها يوماً ما فأسرار أعماق البحار كثيرة جداً بحيث لا يمكن الكشف عنها جميعاً في بضع غوصات قصيرة .

وتوقفت كرة الأعماق عن الغوص على عمق ٤٢٨ متراً ، وهنا يروي لنا الدكتور بيب أنه شهد سمكة خيالية متناهية في الصغر لا يتجاوز طولها ١٥ سنتيمتراً تعوم بسهولة في الضوء المنبعث من كرة الأعماق ، ولقد بدا له أنه من المستحيل عليه أن يصدق أنه لا يمكنه فتح باب الكرة والعوم بنفس السهولة التي تعوم بها تلك السمكة إلا أنه لو كان حاول ذلك ما لقي حتفه غرقاً ، وإنما كانت قطرات الماء الأولى اندفعت خلال جسمه بقوة تحت الضغط الهائل كأنها قذائف .

ولم يتقدم الغواصان في ذلك اليوم عن ذلك الحد ، لكنهما حاولا الغوص مرتين في السنوات الأربع التالية في نفس تلك الكرة الصغيرة المتينة المصنوعة من الصلب ، ووصلا في المرة الأخيرة في أغسطس عام ١٩٣٤ إلى عمق ٩٠٨ أمتار وعند هذا المستوى شهدا مخلوقات أضخم وأغرب من تلك التي وجداها

في طبقات هذه الأعماق شهد مخلوقات عاش أسلاف بعضها في أغوار المحيط ربما قد يصل إلى ملايين السنين قبل أن يوجد الإنسان

وعلى الرغم من أن غوصات الدكتور بيب الأولى في كرة الأعماق التي صنعها أوتيس بارتون فتحت الطريق بين منطقة لم يرتدها أحد من قبل فإنه لا يزال هناك عشرات الألوف من الأمتار من أعماق المحيط بعيدة تنتظر الاستكشاف وسوف تبدو كرة الأعماق بعيون المستقبل المستكشفين بدائية ومضحكة كما حدث للغواصة البحرية الأولى أو الطائرة الأولى إلا أن كرة الأعماق الأولى جعلت في استطاعة الإنسان زيارة العوالم المجهولة

ولقد غاص ، حديثاً ، الدكتور أوغسطس بيكارد العالم البلجيكي وبعض ضباط البحرية الفرنسية إلى عمق يزيد على ٣٠٠٠ متر في البحر المتوسط أكثر من مرة ! وربما نتعلم كيف أن أبحاثاً يمكنها الغوص آلاف الأمتار دون الاستعانة بكرة الأعماق في حين أن الإنسان لا يمكنه ذلك . وربما نعرف شيئاً عن ثعابين البحر التي تعيش في كهوف أعماق البحار المظلمة

بل ربما نتعلم الكيفية التي تتحكم بها كائنات الأعماق الحية في أضوائها لترشدها في طريقها خلال الظلمات

لقد فتح باب آخر عظيم للمعرفة على مصراعيه وما هي إلا مسألة وقت حتى يمكننا جميعاً ولوجه



على الأرض في صفحات نحو العليا

قهر جبل ماكنلي :

بعد تم أخيراً تسلق أعلى جبل في آسيا ، بل في العالم ، بعد سنين من الصراع ثم اعتبره ... مستحيلا في يوم من الأيام . إلا أنه على الرغم من أن جبل إفرست سوف لا يفقد ... في ... ألا ... على قصة المغامرة التي تروى ... أكثر من ...

على أن الجبال جميعها لا تعد ... أن يقهرها الإنسان . فثمة قمم ... يستطيعها الناس أكثر من ... حتى الآن . وعلى الرغم من ذلك فلا ... من أشهر ... وأصعبها . ومن الغريب أنهم ... على خريطة أو ... إلا بعد تسمية جبل إفرست وقياسه بأربعين عاماً

وربما نلتمس العذر ، للذين لا يعرفون الجبال من خبرة التسلق ، فهم يعتقدون أن ... هو ... ، وذلك هو كل ... الأمر ... وليس هناك من هو أبعد

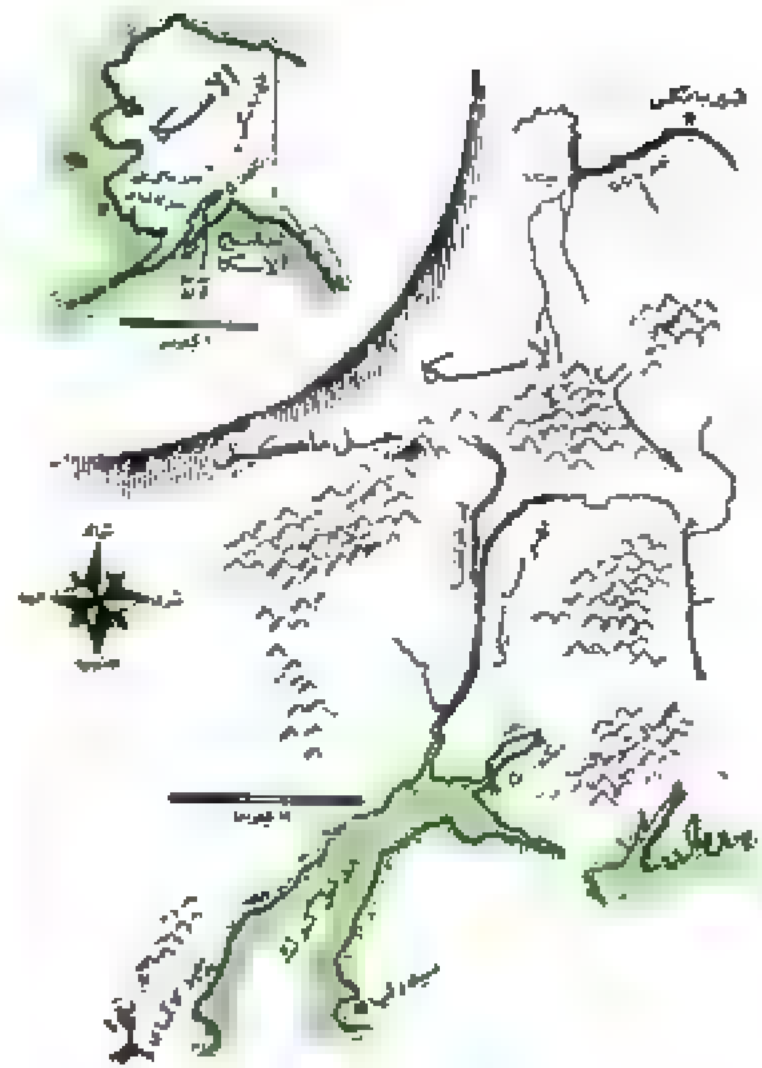
عن الصواب من ذلك ... كما يعلم جميع رواد التسلق ... فحقيق أن جبل إفرست هو أعلى جبل في العالم ، ولقد أثبت أنه من أصعبها تسلقاً ، إلا أنه توجد قمم أوطأ منه لم يمكن تسلقها على الإطلاق على الرغم من فن المتسلقين

وتوجد جبال في أمريكا الجنوبية يزيد ارتفاعها على ٦٠٠٠ متر يمكن أن يتسلقها الناس دون أن تطأ أقدامهم الثلج أو الجليد ... ومن ناحية أخرى توجد جبال في أمريكا الشمالية يبلغ ارتفاعها نصف ذلك الارتفاع ، صعبة المراس ولا يمكن أن يقهرها إلا أصلب المتسلقين عوداً وأكثرهم خبرة

وحتى قبل بدء القرن الحالي ... ، لم يكن هناك من يستطيع أن يحدد أعلى جبل بين الجبال التي تقع في شمال ... ، وتواترت الشائعات بوجود قمة عظيمة في قلب ألاسكا يحتمل أن تكون أعلى قمة في العالم ، إلا أنه كان من الصعب الوصول إلى تلك المنطقة ، و ... عديدة تنأى عن الأقدام ، ولم تكن لأي شخص القرب منها قرباً كافياً للتحقق من ذلك

وفي عام ١٨٨٩ وقع نظر أحد الباحثين عن الذهب على جبل ، وحكى عنه ... شديدة عند عودته للمدينة ... وفي عام ١٨٩٦ اقترب شخص آخر من القمة المجهولة اقتراباً يكفي لتخمين ارتفاعها ، وجاء التخمين ... يتصل بالارتفاع ، لكنه لم يكن موفقاً ، في نظر الكثيرين ، في اختياره للاسم الذي أطلقه عليه ... فقد ... إن ارتفاع الجبل كان ٦٠٩٠ متراً وأسماه جبل ماكنلي نسبة إلى أحد الساسة غير ... ، وكان مرشحاً لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك العام .

ومن حسن الحظ أو سوئه التصق الاسم الذي اختاره الباحث بالجبل ... جبل ماكنلي في ... على الصورة ... ، إلى الجنوب قليلا من وسط ألاسكا بالضبط ... ولكن لم يحاول أي إنسان تسلقه إلا بعد مرور سبعة أعوام على ذلك ، وحتى تلك المحاولة ... قبل أن يترك أثراً في جليده



لقد كان هناك سبب قوي للفشل، فمكان ذلك الجبل الضخم الذي أسماه الهنود «العظيم» قائمًا في وسط القفار الموحشة التي لم تحدد على مصوّرة «خارطة» على الإطلاق. وكانت أقرب البقاع المأهولة بالسكان إليه فيما عدا معسكرات المناجم أو التجمعات التجارية، هي فيربانكس الواقعة على نهر تانانا على بعد ٢٤٠ كيلو مترًا إلى شماله الشرقي، وأنشوراج الواقعة على شاطئ مدخل كوك على بعد ٢٤٠ كيلومترًا إلى جنوبه الشرقي. وتفصل بين جبل ما كينلي وبحر بيرينج مسافة تقرب من ٦٤٠ كيلومترًا من الغابات والأنهار والمستنقعات المتجمدة، وتقع الحدود الكندية على بعد يزيد عن ٤٨٠ كيلومترًا شرقًا يقطع فيها المسافر المزيد من الغابات والسلاسل الجبلية والأنهار العظمى.

وربما كانت القمة ذاتها أعظم كتلة جبلية معروفة في العالم. فيرتفع جبل ما كينلي مالا يقل عن ٥٤٠٠ متر فوق التلال المنخفضة التي يبرز منها، على عكس جبل إفرست في آسيا الذي يرتفع أكثر قليلا من ٣٩٠٠ متر فوق قاعدته عند مدخل ثلاجة رونجبك. ويتكون سكان تلال جبل ما كينلي من الوعول والدببة وخراف الجبال والذئاب فقط. وهناك اختلاف آخر بين جبل إفرست وجبل ما كينلي وهو أن الـ ٥٤٠٠ متر التي يرتفعها هذا الأخير مغطاة بصفة مستمرة بالثلوج والجليد.

لا يمكن لجبل مثل جبل ماكينلي أن يوجد بمفرده دون إغراء الناس على تسلقه حتى القمة، حتى ولو كان قائمًا في وسط القفار الموحشة. ومن الغريب أن الناس البدائيين لم يراودهم الشعور بتحدي هذا الجبل الشامخ، أو إذا كانوا قد شعروا بهذا الشعور، فلا بد أن الخوف ثبّط همتهم. فلقد كانوا يعتقدون أن الأماكن العالية هي مأوى الشياطين المتوحشة والآلهة التي يهمها ألا يقلقها أحد. وربما يوجد بين المتحضرين أيضًا بعض الناس الذين لا يقدمون على تسلق المرتفعات التي تحيط بمساكنهم، لأنهم واثقون من عدم وجود أي شيء على الجانب الآخر من تلك المرتفعات.

إلا أن الغالب هو أن الإنسان عصبي ومغامر . وقد أضفى هذا التشوق للمخاطرة ميزة أخرى على جبل ماكينلي . فلقد بلغ من جاذبيته للناس أن أحدهم على الأقل ، حاول أن يكسو نفسه برداء العظمة عندما ادعى أنه وصل إلى قمة الجبل ، في حين أنه لم يقترب منه في الواقع .

وجبل ماكينلي يشبه جبل إفرست في أنه تمت رحلات عديدة قبل أي محاولة لتسلقه ، وذلك قصد الاهتداء إلى طريق الوصول إليه .

بدأ الهجوم على جبل ماكينلي بحماسة في عام ١٩٠٦ ، ولو أنه جرت محاولة قبل ذلك في عام ١٩٠٣ وباءت تلك المحاولة الأولى بالفشل ، إذ أنها وصلت إلى قاعدة الكتلة الجبلية العظيمة فقط ، ولم تضف شيئاً إلى المعرفة البشرية فيما تتصل بكيفية الوصول إلى القمة .

وفي منتصف شهر مايو عام ١٩٠٦ انضم الأستاذ هيرشل باركر والمستر بلمور براون والدكتور فردريك أ. كوك إلى فرقة من الجيش في رحلة إلى جبل ماكينلي ، وبدأت الرحلة من سيلدوفيا القريبة من خليج كوك بالاسكا والتي تبعد ٤٠٠ كيلومتر عن الجبل العظيم الغامض . وكان الفريق كبيراً وزود بعشرين حصاناً للأحمال وقارب بحاري وكثير من العمال والسياس ومساح ومصور . لقد كانت رحلة حقيقية زودت بالطعام الوفير والخبرات العديدة ، كما دلت على ذلك جميع المظاهر

كان الأستاذ باركر من رواد الجبال ذوي الخبرة ، وكذلك كان المستر براون . أما الدكتور كوك فقد سبق له أن صحب بيري إلى منطقة القطب الشمالي ، وجاب الكثير من القفار الموحشة جنوب ماكينلي . وأمضت البعثة الفترة من منتصف مايو حتى أغسطس تصارع الماء والثلج والجليد والمستنقعات والبعوض وعلى الرغم من أنها لم تقترب مسافة ملحوظة من هدفها ، فإنها أثبتت أن الخيل حيوانات لا تصلح للعمل في بعثة مثل هذه البعثة . وظهر واضحاً من الاكتشافات

التي سجلت في هذه الرحلة أنه لا يمكن تسلق جبل ماكينلي من الناحية الجنوبية ، وظهرت نتيجة أخرى لهذه الرحلة الكشفية تعتبر من أغرب الأمور الخيالية في تاريخ تسلق الجبال بأجمعه

بدأت القصة العجيبة عندما انفضت بعثة عام ١٩٠٦ في صيف ذلك العام ، وبدلاً من أن يحضر الدكتور كوك إلى الرحلة عقد العزم على العودة إلى أعلى نهر سيسيتنا ليرى أهناك أية دلالة على إمكان الوصول إلى ذلك الجبل الذي أطلق عليه هنود الشمال اسم « الدنالي » أو « العظيم » عن ذلك الطريق . وأراد براون أن يصحبه في هذه الرحلة إلا أن الدكتور كوك أصر على أنه سيقتصر على تأمل ما حوله ، ولن يقوم بعمل استكشاف حقيقي . أضف إلى ذلك أنه فضل أن يقوم براون بصيد بعض الحيوانات في جبال شوجاتش الصاخبة ، وذلك لأن أحد المتاحف في الشرق طلب من كوك — كما جاء على لسانه — أن يحصل على بعض عينات من حيوانات ألاسكا من هذه المنطقة

وذهب براون وهو متبرم إلى حد ما ليقوم بالصيد ، ثم عاد إلى سيلدوفيا حيث سمع إشاعة ، تواترت بعد فترة قصيرة ، بأن الدكتور كوك تسلق جبل ماكينلي . ولم يتردد براون في نفي هذه الإشاعة ، إذ أنه كان يعلم كما كان يعلم الآخرون الذين يعرفون تلك البلاد أن الدكتور كوك لم يكن لديه الوقت ليصل إلى الجبل ثم يعود ، ومن باب أولى ليتسلقه

ولشد ما كانت دهشة براون عندما ظهر الدكتور كوك وصاحبه في سيلدوفيا وقال ، بل عندما قرر الدكتور أنه وصل إلى قمة الجبل . ولكن عندما الشكوك ساورت براون فاستجوب جاساً بارين رفيق الدكتور كوك والذي كان صديقاً حميماً له ، وسأله عن كل معرفته عن جبل ماكينلي ، ولم يشأ بارين أن يقول إنه وصل إلى الجبل ، بل أصر على أن يقول : ذهب وسل كوك ، وسألك تأكد براون ، إلا أن يديه ظلتا مكتوفتين حتى بعد أن نشر الدكتور العجيب كتاباً عن « قمة قارتنا » متضمناً صورة ذيلت بالعبارة « قمة جبل ماكينلي »

ولقد رفض كوك – الذي ادعى في ذلك الوقت أيضاً الوصول إلى القطب الشمالي – الإجابة عن الأسئلة أمام لجنة من نادي المستكشفين ، فجاء على لسانه أن عقله مشوش من التجارب المزعجة التي مرّ بها ، بحيث إنه لا يمكنه الكلام دون الرجوع إلى يومياته . وطلب من اللجنة إمهاله أسبوعين ليستعد فيهما ، واختفى في هذين الأسبوعين تاركاً العالم بين مصدق ومكذب .

كان هذا هو الموقف عام ١٩١٠ ، أي بعد ما وصف جبل ماكينلي لأول مرة بأكثر من عشرين عاماً . وكان الناس تتملكهم الحيرة في حين كانت القمة الصخرية تشرف عليهم من عليائها كعهدها من آلاف السنين . وتبدو بجسمها وهي في كسوتها البيضاء الموشحة بالذهب ، مرصعة بألوان ظلال الجليد الأرجوانية ، راسية على الأرض وكأنها في قمة السحاب ، تُرى هل وطئت قدم الإنسان هذه القمة ؟ أم أنها ظلت حتى ذلك الوقت بمنأى عن الأقدام لم تمس ؟ لقد كان الدكتور هيرشل باركر وبلمور براون يشعران بأن لديهما من مبررات ، أن أحداً لم يمس تلك القمة ، وظل الجبل العظيم مستعصياً عليهما ، وكانا يعلمان أنه لابد لهما من المحاولة مرة أخرى ، ولو كان ذلك بغرض تكذيب ادعاء الدكتور فقط

وفي أوائل مايو أقلع باركر وبراون مع فريق معد إعداداً تاماً لكنهم لم يأخذوا معهم خيلاً هذه المرة . ومرة أخرى سلكا الطريق إلى الجبل العظيم من ناحية الجنوب . وإننا إذا تأملنا الخارطة نجد أن سلسلة ألاسكا الكبيرة التي يكون جبل ماكينلي جزءاً منها تمتد شمالاً وشرقاً كجناح منشور صاعد من شبه جزيرة ألاسكا غربي خليج كوك . وتغطي المنطقة الواقعة جنوب شرق هذا الجناح الجبلي العظيم شبكة من الأنهار الحجرية السريعة التي تصب في خليج ألاسكا وتجري في تلك الأنهار السريعة مياه ثلجية من الثلاجات الكبيرة في السلسلة الجبلية العظيمة

ولقد بدا واضحاً لباركر وبراون أن القافلة إذا اتبعت مجرى أكبر الأنهار

إلى مصادره فإنها لا بد واصلة إلى أكبر الثلاجات التي تؤدي – على جميع الاحتمالات – إلى أكبر انحدارات الجبل . فاختار المستكشفان ، لهذا الغرض ، نهر « شيب » الذي يصب في النهاية الشمالية لخليج كوك . ثم اتبعا رافده « الشوليتنا » إلى نقطة تبعد ٦٤ كيلومتراً جنوب شرقي الجبل حيث توجد ثلاجة عظيمة يتدفق منها في النهر سيل جارف من الماء الثلجي الناصع البياض ، وهنا أقامت القافلة معسكرها الأساسي بعد سفر استمر ستة أسابيع تقريباً ، وأخذوا يستعدون لما حسبوه المرحلة الأخيرة في قهر ماكينلي

ومرة أخرى كان عليهم أن يتعلموا أن ثمة أشياء في سلسلة ألاسكا يندر أن تبدو على حقيقتها . فكانت الثلاجة التي اعتزموا سلوك طريقها تبدو كطريق ثلجي متسع يؤدي إلى الجبل ، لكنها كانت في الحقيقة أحبولة قاتلة من الجروف الثلجية والشقوق العميقة ، المغطاة بغطاء خادع من الجليد الذي كانت تتألق عليه الشمس تألقاً باهراً خاطفاً . ما كان يضطره القائد إلى التوقف عن المسير من شدة آلام العمى الجليدي . وفي كل مرة توقفت فيها القافلة كان المستكشفون يحاصرون ببرودة العواصف الثلجية ، وانجراف الجليد .

وعلى الرغم من أن المتسلقين صمدوا حتى أواخر يولية فإنهم كانوا غير قادرين على إحراز تقدم كبير . لكن جهودهم لم تذهب هدراً ، فعندما وصلوا إلى منتصف الطريق في أثناء صعودهم نحو الثلاجة العظيمة ، رأوا وادياً ثلجياً بين الجروف الصخرية مغطاة بالجليد . وكانت هذه النقطة هي آخر ما تمكن الدكتور كوك من الوصول إليه في المرة التي سبقتها ، واعتقد رجال القافلة أن الصور التي نشرها في كتابه والتي ادعى أنها صور قمة جبل ماكينلي لا بد أن تكون قد أُخذت قريباً من هذه المنطقة . وسرعان ما تحققوا من صحة اعتقادهم عندما تسلقوا الجرف الذي يقع عند رأس الوادي

والتقط بلمور براون صورة تشبه تماماً الصورة التي أطلق عليها الدكتور كوك قمة أعظم جبل في أمريكا الشمالية . إلا أن براون كان وهو يلتقط الصورة واقفاً

على مرتفع يقل عن ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر وعلى بعد ٣٢ كيلومتراً من ماكينلي

ومرة أخرى رجعت المقادير الشاسعة التي تحيط بماكينلي إلى حالتها الطبيعية فكانت الوعول تهيم على سطح التلال لا يزعجها إلا الذئاب ، وفي الصخور الشاهقة كانت الخراف الجبلية ترعى لا يكدر صفوها مكدر ، أما النسر الأكبر من « العقبان » فكان شامخاً في بقعه الناصع ضخماً يبع عنان السماء يناطح الشمس والسحاب

إلا أن هذا العالم ليس عالم سكون ، فكانت ملايين الأطنان من الثلج المتدفق من على أكتاف الجبل تهدر وتصلصل ، كقعقعة الجيش ، في طريقها إلى أحواض الثلاجات العميقة ومن الصخور الشديدة الانحدار كانت تنهار جبال ثلجية بأكملها انهياراً راعداً يتقدمها الغبار الثلجي متدحرجاً في سحب يبلغ ارتفاعها آلاف الأمتار أما في أعلى الأعالي فكانت قمة ماكينلي الناصعة تتألق في أشعة الشمس الساطعة في استخفاف كأنها تقول « هيا ، تقدم وحاول الصعود بي إذا أردت لكي توجه بصرك إلى أسفل ، وانظر ما لا بد لك من مصارعته » .

وبعد سنتين من المحاولة الثانية الفاشلة كان الأستاذ باركر وبلمور براون مع أرثر آتن وميرل لافوي على استعداد لمحاولة أخرى ، وبدأوا رحلتهم هذه المرة في يناير حيث لا يمكن ركوب القوارب في الوصول إلى أعالي الأنهار ، وكانت مياه نهر « سسيت » و « شوليتنا » الثلجية غارقة في سكون عميق تحت عدة أمتار من الثلوج المتراكمة عليها واستخدمت البعثة فرقة من الكلاب في صعود المضايق التي سبق لها أن صعدتها في قارب بخاري

وفي ١٩ من فبراير عام ١٩١٢ أقلعوا من مستعمرة سسيتنا الصغيرة في رحلة تزيد على مسيرة ١٦٠ كيلو متراً نحو الشمال وكانوا يأملون في أثناء تقدمهم أن يعثروا على طريق يقودهم عبر السلسلة العظيمة إلى الجانب الشمالي الشرقي

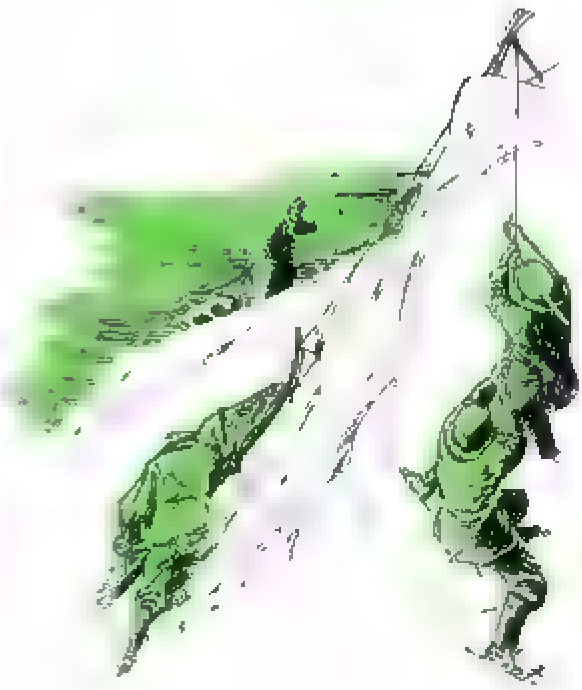
للجبل ماكينلي واعتقد رجال البعثة أن هذا الاتجاه كان الاتجاه الوحيد الذي يمكنهم من تسلق الجبل

وبعد شهر تقريباً ، وفي يوم ١٣ من مارس ، وجدوا ضالتهم ، نهراً مجهولاً غير معروف الاسم ، يجري في التواء خلال غور عميق من الشمال الغربي ولم يساورهم أدنى شك في أن هذا النهر يقودهم في اتجاه الوجه الشمالي الشرقي للجبل ، ولكن لم يمكن لأي شخص أن يتنبأ بالعقبات التي تعترضهم في الطريق

وكان رجال البعثة لا يزالون على بعد ٦٤ كيلومتراً من المكان الذي كانوا يأملون أن يجدوا عنده الطريق الذي يسلكونه ليمكنهم من هذا التسلق ، ولو أنهم وجدوا بدلاً منه جدران الصخور والثلج شديدة الانحدار التي أرغمت تقدمهم في المرتين السابقتين لكانوا أصيبوا بالهزيمة مرة أخرى

والآن يجب علينا أن نتذكر أن تسلق جبل في الشمال الأمريكي أمر يختلف عن التسلق في منطقة جبل إفرست في شمال الهند حيث يمكن استئجار الحمالين لحمل الطعام والعدد ، ففي ألاسكا يتحتم على المتسلقين أن يحملوا أمتعتهم عندما يصلون إلى النقطة التي لا يمكن للكلاب الاستمرار في السير بعدها

وفي ١٣ من مارس عندما وصلت بعثة باركر وبراون إلى النهر المجهول المؤدي إلى سلسلة جبال ألاسكا ، كان معهم من مؤونة ومعدات ما يكفي أربعة أشخاص لمدة أربعة أشهر ، وكان لا بد من حمل كل ذلك فوق الثلاجات ومنحدرات الثلجية غير المستوية في طقس بلغت درجة حرارته الصفر وحيث لا سبيل لمعرفة الأخطار ، لمسافة تزيد على ٦٤ كيلومتراً دون الاستعانة « بخارطة » أو أثر لإرشاد الرجال والكلاب وكان الانحدار في بعض الأماكن شديداً بحيث كان عليهم أن يعلقوا الزلاقات في أحبال ربطت في فؤوس جليد ثبتت في الجليد وبعد أسابيع ثلاثة من التقدم المحطم للقلوب في ظروف جوية قاسية جداً وجدت القافلة طريقاً وعبرت السلسلة عند أعلى نقطة فيه ، وكان ذلك



وكان الطريق شديد الانحدار في بعض الأماكن

الطريق لرحلة على ارتفاع ١٨٠٠ متر في الحاجز الجبلي العظيم .

وبعد أسبوع أو نحوه – وكانوا متعبين – شيئاً أمكنهم معرفة ذلك هو ثلاجة ماتدرو العظيمة التي سماها إلى الفوبرغوق الذي وضعها لأول مرة . ويجري هذا النهر الثلجي الضخم في جلال وبطء من أكتاف جبل العظيم إلى الأرض منحدراً على امتداد الشمالية لسلسلة ألاسكا الجبلية

وفي ٢٤ أبريل كانوا قد وصلوا إلى ثلاجة ماتدرو وعبروا الفجوات التي تخرج منها . ثم بدأوا في الشق مرة أخرى وهم يجذبون و . . . ٢٧٠ كيلوجراماً من الأخشاب إلى ارتفاع ٧٥٠ متراً وهنا فوق خط الأشجار أقاموا معسكرهم بين الحيوانات وأشجار القطن البري المعوقة ولا يفصلهم عن جبل ماكينلي غير ٣٢ كيلومتراً فقط ! فاستكنوا للراحة استعداداً للهجمة النهائية ، وأكلوا لحماً طيباً طازجاً من خراف جبلية التي تمكن بوب من صيدها وكانوا بين الحين والحين ، يقومون برحلات قصيرة نحو جبل لدراسة أحسن الطرق المؤدية للقمة

وفي ٢٨ من أبريل كانوا على أهبة الاستعداد ، وكان عليهم أن يسيروا ١٦ كيلومتراً تقريباً أعلى ثلاجة ماتدرو في طريق محفوف بمخاطر الثغرات والجليد المتشقق ولم يكن من الممكن حمل المؤونة والمعدات تلك المسافة في وقت كاف دون الاستعانة بالكلاب

وعند ارتفاع ٣٠٠٠ متر تقريباً أقاموا معسكرهم في زوبعة ثلجية قاسية على بقعة مستوية تحت مسقط ثلجي هائل مباشرة وقريباً من رأس الثلاجة وقد اضطروا إلى الانتظار تحت ظروف الطقس القاسية وفي هذا المعسكر أتاهم الإنذار الأول ، فكان الجبل يستجمع كل قوته ليحفظ نفسه من تدنيس الإنسان له ، ونندع بلمور براون يروي لنا ذلك بنفس كلماته .

« كان الوقت بعد الغداء ، حيث كان الأستاذ باركر نائماً ، وكنت أتجاذب الحديث مع لافوي همساً ، في حين كنا منصتين لفرقعة الجليد الذي تقلقل به العاصفة جدران مأوانا الواهي وفجأة شعرت أن الثلاجة عند تحتنا

وأرعد على القريب من انهيارات ثلجية . وقد ظننت أننا سقطنا في كهف ثلجي ، أو أن السيراك (برور في المسقط الثلجي الذي كان يعلوهم) كان ساقطاً آخذنا معه . ولكن ردتنا إلى رشدنا بعد لحظة صدمة أخرى ، وعندما حدثت بخاطري فكرة الزلزال كان الهواء قد أرعد وأخذ يصعق تحت تأثير قوة الانهيارات التي لا حصر لها . لقد كان صوتاً مرعباً وعنيفاً ، وكم كنا سعداء عندما سكتت الأصداء ، وعندما نسمع مرة أخرى صوت الريح والجليد الكئيب .

وحتى يوم ٥ يونية قبل أن يكون كل شئ معداً للهجمة النهائية على القمة وقد تم نقل المؤن إلى ارتفاع ٣٣٠٠ متر . أما بعد ذلك فكان لابد من حمل الأشياء الضرورية للنقل على ظهور المتسلقين ، على أن النقص لم يكن متفاوتاً ، فقد كانوا في وقت متأخر .

وفي ٨ من يونيه انتاب الرعب أعضاء الفريق بعد أن قضوا ثلاثة أيام في عاصفة ثلجية شتت شملهم . وكان السبب في رعبهم صوت غير عادي حيث ظنوا أنه صادر من الثلاجة التي كانوا يعسكرون عليها . وبدا لهم أن الثلج يزأر وينشق وسمعت أصداؤه تأتيهم بصوت هادر كأنها أصوات مدافع تنطلق من بعد . ولو أن رجال الفريق كانوا مهمومين بسبب ذلك الصوت ، لكان لهم الحق في القلق ، ولكنهم لم يمكنهم فهم السبب حتى بعد أن وجدوا رماداً لم يعرفوا مصدره في القدور التي كانوا يستخدمونها في إذابة الجليد لعمل الشاي .

وعلى الرغم من أن الأصوات بدت كأنها صادرة من الثلاجة فإن سببها كان يبعد عنهم مسافة ٤٨٠ كيلو متراً في شبه جزيرة ألاسكا . حيث ثار فجأة بركان قديم يطلق عليه « بركان كاتماي » يقع في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد وعلى ارتفاع ٢٢٥ متراً . ولقد حدث هذا الثوران الذي يعتبر أعظم ثوران في العصر الحديث يوم ٨ يونيه ١٩١٢ . وكان ذلك غريباً ، إذ أن البركان كان خاملاً عدة أعوام . ولقد كانت الصدمة التي نتجت عن هذه الحادثة هي

التي رجحت منها صخور . وثلاجات حول ماكنلي وأحدثت الانهيارات الخطرة وربما كان للثوران علاقة بالطقس القاسي الذي جاء في غير موعده . والذي كان السبب في متاعب المتسلقين وهزيمتهم النهائية .

ووصل باركر وبراون ولافوي إلى الجرف الشمالي الشرقي العظيم في ١٩ من يونيه ، وقاموا بتجربة تسلق ، هذا على الرغم من الجليد والسحب المتواصلة وخطر الانهيارات الذي كان يهددهم باستمرار (أما آبي فكان قد عاد إلى القاعدة بكلاب الفريق) . وارتفعوا في هذا التسلق التجريبي إلى ٣٩٦٠ متراً على جرف من جليد شبه عمودي . كان انحداره يتراوح بين ٥٠° و٦٠° على الجانبين بطول ٦٠٠ متر على أحد الجانبين و١٥٠٠ متر على الجانب الآخر . ولقد كان انحدار هذا الجرف كبيراً جداً مما اضطر براون إلى قطع قمته ليسوي مكاناً يمكنهم الوقوف عليه .

ولقد اعتقدوا في بادئ الأمر أنهم يستطيعون نقل مؤنهم إلى التجويف المعروف بالحوض العظيم الذي يفصل قمة الجبل الشمالية عن قمته الجنوبية في أقل من يوم . لكنهم استغرقوا في الواقع ثلاثة أيام ليصلوا إلى مدخل الحوض وهناك تعرضوا لعذاب آخر بالإضافة إلى محنة العواصف الثلجية المتزايدة ، ذلك عندما اكتشفوا ، وهم على ارتفاع ٥٤٠٠ متر ، أن الصنف الرئيسي في غذائهم « هريس اللحم » لم يعد يناسبهم . ولقد كان هذا الأمر خطيراً لأنه لم يكن لديهم طعام آخر يمدهم بالطاقة والوقاية من البرد حيث كانت درجة الحرارة على ارتفاع ٤٨٠٠ متر في السابعة والنصف من مساء ٢٦ من يونية ١٩° تحت الصفر .

وفي ٢٧ من يونية ، استولى عليهم الاعتقاد بأن صباح الغد سوف يشرق عليهم وهم فوق القمة ، هذا على الرغم من الطعام غير المناسب وعدم قدرتهم على النوم المريح في البرد القارس . فلقد انتهت أسوأ مرحلة للتسلق . وكان ميل



وصلهم الممر الصخري إلى حافة حادة من جليد

الطريق يسير بالتدريج تقريباً إلى أعلى ابتداء من الحوض العظيم . وبدا الأمر بسيطاً .

وعندما وصلوا إلى ارتفاع ٥٧٠٠ متر ، كانوا قد تركوا وراءهم آخر صخرة عالية وأمكنهم أن يروا لأول مرة القمة فوقهم . إلا أنه كان من الضروري أن يحفروا درجات في الجليد . ولما أصبحوا على مقربة من ارتفاع ٦٠٠٠ متر حيث أفقد البرد القارس أرجلهم وأيديهم الإحساس تقريباً شعروا بلفح الريح المحمل بالثلج منذراً بقدوم عاصفة ثلجية أخرى نحوهم ، ومن خلال جليد اللامع أمكنهم أن يروا أن الميل الذي أمامهم كان أقل انحداراً بكثير . لقد كانت بداية القمة الحقيقية! وواصلت الريح في الاشتداد ، واستمرت تعصف بوجوههم المتجمدة .

كان بروك متسابقاً ومعه هاد إليهم وتحت ثلاثتهم مقعداً في الثلج ، ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى تبين لهم أنهم لا يمكنهم البقاء في هذه البقعة ، فقد بدأوا يتجمدون ، وأراد الدكتور ماركر مواصلة الصعود إلا أن براون كان يعرف أن ذلك مستحيل ، وأشار في صمت إلى خط صعودهم . فرأوا أن مواقع أقدامهم كانت قد غطيت بالجليد .

وتلمسوا طريقهم هابطين في العاصفة ، وكانوا يتحسسون خطواتهم بأطراف فؤوس الثلج التي كانت معهم . ووصلوا إلى أعلى معسكر لهم فيما بين الساعة والنصف والثامنة من ذلك المساء حيث وجدوا أن خيمتهم قد تمزقت ، وكان قد أعياهم صراعهم للريح الباردة التي كانت تهب بسرعة ٨٨ كيلومتراً في الساعة ، في درجة حرارة ١٥ تحت الصفر .

وبقيا في معسكرهم طوال اليوم التالي ، إذ أن خيمة الحديد عبر مأمون السير عليه . وأمضوا وقتهم في الحديث عن الطعام والطقس ، وفي محاولة تجفيف ملابسهم المكسوة بالثلج .

وفي الساعة الثالثة من صباح أول يولية أفلح ثلاثتهم في ضوء النهار الساطع



وهبت عليهم عاصفة ثلجية أخرى

نحو القمة مرة أخرى ، ولكن خفقت قلوبهم وهم في تسلقهم ؛ فقد كانت هناك كتلة سحب ... كثيفة سوداء تتدحرج إلى أعلى وادي ... ووصل المتسلقون إلى ارتفاع ٥٧٩٠ متراً قبل أن تحيط العاصفة الثلجية السوداء بالجبل مرة أخرى وهكذا انتصر «الدمار» أو «العظيم» مرة أخرى ؛ فهؤلاء ثلاثة رجال أشداء محنطون تحت الأعمى وهم هابطون في العاصفة يمشون فاقدي الإحساس . وقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إعلان هزيمتهم بعد صراع استمر أربعة شهور ونصف الشهر .

لقد كانت هزيمة نهائية بالنسبة لباركر وبراون . إلا أن هذين الرجلين لذلك الجبل العظيم لم يشعرا بأن هزيمتهما كانت فشلاً ... على أية حال فقد اكتشفا وسلكا الطريق إلى القمة ... وشعورهما الوحيد بالحسرة في أنهما لم يصلا إلى أعلى جزء للقمة – أي قمة الخصب .

وفي ٤ من يونيه وصل المتسلقون الذين ... منهم الإعياء إلى معسكرهم الأساسي حيث كانت تنتظرهم ... والكلاب . وهنا أخذوا قسطهم من الراحة وهم يستعيدون معداتهم ويجمعونها . وفي ٦ من يونية وبينما هم جالسون في معسكرهم ... في أمر الطقس الذي كان منذراً بالويل إذ سمعوا فجأة صوتاً شبه رعد آتٍ من ... ماكينلي ... وعلى الحال ... بدا كأنه يزمجر ويهدر .

ثم ... المعسكر ... وانقلب كل شيء ... غير ... في ذلك الوقت رأساً على عقب ... صخرة ضخمة ... على الأرض واستقرت أمام خيمتهم على بعد عدة أمتار منهم ... الأرض وتدحرجت واهتزت مثل ... الوجه الغربي لجبل بروكس وهو قمة يبلغ ارتفاعها ٣٦٠٠ متر تقع شرق ماكينلي ... هذا الوجه بأكمله عن الجبل وانزلق كأنه انهيار ضخم نحو وادي الثلاجة التي تقع أسفله ... وبعد بضع دقائق انتشر غبار الثلج إلى ارتفاع آلاف الكيلومترات في الهواء ثم ...

هابطاً إلى الوادي نحو معسكر رواد الجبال الذين تملكتهم الدهشة

لقد وجد الرجال الوقت الذي اتسع لتثبيت أطراف خيمتهم بالصخور والزحف تحتها عندما صدمتهم السحابة التي كانت مندفعة إلى أسفل بسرعة ٩٦ كيلومتراً في الساعة، وواصلت هديرها هابطة إلى الأراضي المنخفضة، وما إن مرت بهم السحابة حتى زحفوا إلى الخارج ونظروا حولهم في اضطراب، لقد أصبحت الأنهار الواقعة أسفلهم بلون الشيكولاتة من الطين وفاضت على حروفها، وبدت الجبال التي كانت ناصعة البياض من فوقهم بنية وغشيتها سحابة من الثلج وغبار الصخور.

نظر المستكشفون الأربعة بعضهم إلى بعض في صمت، لقد تبين لهم أنهم لو كانوا فوق الجبل في هذه اللحظة لما بقوا أحياء، لقد عاشوا، عن طريق المصادفة المحضة في التوقيت، في أعظم زلزال، وكان من الممكن أن تحطم الأرض المرتجفة مدينة بأجمعها وتقتل أغلب سكانها لو أن هذه المدينة كانت واقعة في حدود ١٦٠ كيلومتراً.

وفي طريق العودة سمع المتسلقون إشاعة تعزو إلى بعض المنقبين قد تسلقوا القمة الشمالية للجبل (تنخفض عن القمة الحقيقية بحوالي ٣٠٠ متر) منذ بضعة أسابيع عن طريق فيربانكس التي تقع على بعد ٢٤٠ كيلومتراً إلى الشمال. ولقد تشكك المستكشفون في هذه الإشاعة، إذ أنهم رأوا تلك القمة الشمالية وكانوا يعرفون ظروف التسلق في الجبل.

وبهزيمة أصبحت قوة وأحسبه عناداً، أرسلت حتى ذلك الوقت لتسلق جبل ماكينلي، كان الجبل قد استنفد جميع الحيل التي في جعبته. ولم يكن الدكتور هدسون ستاك رئيس شماسة يوكون، يدري عندما أقلع في ربيع عام ١٩١٣ أنه كان يقترب من جبل كانت أيامه — كقمة لم يتسلقها إنسان — معدودة.

كان الدكتور ستاك رجلاً ضئيلاً نحيلاً لا يزيد وزنه على ٦٧ كيلوجراماً لكنه كان متسلقاً ذا خبرة وكان قد أمضى أعواماً كثيرة في جليد الألاسكا

وثلوجها اللذين لا يمكن أن يعبرا، كما جاء على لسانه، بمجرد أنها ارتفعت ٦٠٠٠ متر في الهواء.

وكان اثنان من مصاحبي الدكتور ستاك في التسلق الواقعي، من أهالي الألاسكا الذين ساروا متجمعين وعلى زلاقات آلاف الكيلومترات من الطرق غير المطروقة في جميع أنحاء البلاد الشاسعة. وكان الرجل الرابع في الفريق مبعوثاً شاباً كانت له خبرة سنتين في الشمال.

لقد كان هؤلاء الرجال يعرفون، بل كانوا قادرين على استخدام الأراضي بطريقة أفضل من أعضاء بعثة باركر وبراون. فلم يحملوا معهم كميات غير لازمة من معزى اللحم، لأنهم كانوا يعلمون أنه من الممكن العثور على حيوانات الصيد عند معسكرهم الأساسي، ومن الممكن تجهيز الصيد للغداء وقت صيده

أقام الدكتور ستاك مركز قيادته في بلدة التي تقع على بعد ٨٠ كيلومتراً جنوب غربي فيربانكس وتبعد مسافة تزيد قليلاً عن ١٩٠ كيلومتراً عن جبل ماكينلي، ومن هذه النقطة بدأ الدكتور ورفقه اقترابهم من الجبل من الناحية الشمالية ووصل إلى معسكره الأساسي في أوائل أبريل وأقامه في التلال المعشبة بالقرب من المكان الذي أقام فيه باركر وبراون معسكرهما من قبل. وكان قد اصطحب معه صبيين هنديين من إرسالية ستانا جوني فريد وإسايس وعهد إليهما بالعناية بالكلاب وقيادتها. وأعيد إسايس من المعسكر الأساسي إلى ستانا مصطحباً معه إحدى فرقتي الكلاب، أما جوني فريد فقد بقي في المعسكر الأساسي ومعه الفرقة الأخرى من الكلاب، وعلى الرغم من أنه كان يناهز الخامسة عشرة من عمره فإنه كان يقوم بالأعمال المنزلية ويذهب للصيد ويرعى الكلاب.

سلك الدكتور ستاك في صعوده الجبل طريقاً يطابق تماماً طريق باركر وبراون، واستخدم الكلاب، كما استخدمتها البعثة السابقة، في حمل المؤن على ثلاجة مالدرو إلى أبعد نقطة ممكنة. ومن هذه النقطة كان على الرجال أن



الدكتور هدسون ستاك

يحملوا أحمالهم على ظهورهم ، فكانوا يودعون مؤنهم في حفر ويعودون لإحضار المزيد منها. ولقد تم كل ذلك في الصعب النحيفة والبرد القارس ، والغريب أنه بالإضافة إلى ذلك كانت الشمس تلفحهم بحرارتها. وكان عليهم أن يحملوا أحمالهم فوق ثلوج الثلاجة المحفورة بالشقوق المختفية تحت الجليد والتي يبلغ أعماقها مئات الأمتار. وقد قدر الدكتور ستاك أن كل رجل من رجال فرقته الأربعة سبق وقطع أكثر من ١٨٠٠٠ متر بدلا من ٦٠٠٠ متر - المسافة المخصصة للقمة

كانت ضرورة حمل الأشياء إلى أعلى ارتفاع ممكن وتركها في المعسكر، ثم العودة ثانية لإحضار المزيد منها هي الأمر الذي كاد يفسد بعثة ستاك ، ففي أثناء عودتهم من أسفل الجبل ذات يوم محملين بالأحمال إلى المعسكر الذي سبق أن أقاموه في موقع أعلى ، رأوا دخاناً يعلو الثلاجة ... كان صادراً من موقع معسكرهم !

وحتى ظهور الدخان في هذا المكان الذي يعلو خط الأشجار في الشمال

شيئاً واحداً فقط ... هو وجود الإنسان. ولكن من هو الإنسان الذي يمكن أن يكون موجوداً في المعسكر ؟ أسرع الدكتور ستاك وفريقه حتى وصلوا إلى مخازنهم في الوقت المناسب لإنقاذ جزء من المؤن. فوجدوا النيران تضطرم في خيمتهم وأصبت كل محتوياتها الشمع واللبن المجفف ، ومسحوق الخميرة ، والفواكه المجففة ، والبسكويت ، وأغطية نومهم والجوارب الاحتياطية والقفازات وأفلام التصوير ... وحقيقة لقد دل الدخان على وجود إنسان ، لكن هذا الإنسان كان واحداً منهم ألقى عود ثقاب بإهمال دون أن يتأكد من إطفائه

وفي ٩ من مايو أرسلت الكلاب ثانية إلى المعسكر الأساسي ، مع جوني فريد ، وأقام المتسلقون في طريقهم إلى الحوض العلوي الواقع بين قمتي جبل ماكينلي ، متسلقين الجرف الشمالي الشرقي العظيم المؤدي إلى ذلك الحوض من ثلاجة ماندرو . وكانوا قد قرأوا مقالاً كتبه بلمور براون في إحدى المجلات يصف فيه هذا الجرف . فقال عنه براون إنه : « طريق جبلي مائل شديد الانحدار لكنه عملي » ، وهذا هو ما ظهر في الصورة الفوتوغرافية التي نشرت مع المقال . إلا أن الجرف الذي كان أمامهم لم يكن يشبه على الإطلاق الجرف الذي ظهر في الصورة ! لقد كان عبارة عن كتلة من الثلج والصخر تفتتت واختلطت قطعها فأصبحت شبيهة بأسنان المنشار .

وقف الدكتور ستاك مشدوهاً غير قادر على تصديق ما رأته عيناه ثم أدرك السر ، فلقد جعل الزلزال الذي روى عنه فريق باركر وبراون ... وكان أسوأ زلزال بعد نكبة سان فرانسسكو في عام ١٩٠٦ – الطريق الوحيد المعروف لقمة ماكينلي مستحيل الاجتياز تقريباً

ألقى الدكتور ورفاقه بأنفسهم في هذا الخليط من الكتل الثلجية الضخمة التي تناهز المنازل في حجمها ، وشقوا طريقاً فيه ، واستغرق تسلقهم الجرف ثلاثة أسابيع ، وهو الجرف الذي تسلقه باركر وبراون في يومين ... وتبلغ رحلة الـ ٤,٨ كيلومترات هذه - بواقع ١,٦ كيلومتر في الأسبوع - كانتصار من الانتصارات



كان الدخان يتصاعد من موقع معسكرهم

المرموقة جداً في تاريخ تسلق الجبال . لقد تمت فعلا في عهد مغامرة ماكينلي . إلا أن الجبل العظيم كان لا يزال محتفظاً ببضعة أسهم في جعبته . فبدا أن استنفد كل الحيل الممكنة لتثبيط همم مهاجميه ، حاول بالحرارة هذه المرة . فلقد استقر الطقس بشمسه الساطعة سطوعاً متواصلا لا تشوبه عواصف ذات بال ، وسجل المحرار « الترمومتر » في ٤ من يونية درجة حرارة ٥٠° وهي حرارة خطيرة على الجليد العاكس لأشعة الشمس ، وحمل الأثقال على الجليد في هذه الحرارة من الأعمال المجهدة القاصمة للظهر .

لكن الحرارة والوهج وأحياناً البرد . إذ أن درجة الحرارة كانت تنزل أحياناً إلى ١٠° أو ٢٠° تحت الصفر . لم تمنع المتسلقين من الاستمرار في المضي إلى هدفهم . لقد كان الطقس صافياً بدرجة غير معتادة ، وكان لدى الفريق طعام وفير . فعبروا حوض العظم بسهولة نسبيةً وأقاموا معسكرهم عند قاعدة الحرف النهائي ، وكان أمامهم تسلق يوم واحد ، في حين كان ما لديهم من الطعام والمؤونة يكفيهم ثلاثة أسابيع . وكان الدكتور ستاك ، أكبر الأربعة سناً وأعمرهم لا يقدر على التسلق أكثر من دقيقة أو دقيقتين دون أن يستريح وقتاً أطول من ذلك بكثير .

وهكذا مضوا في طريقهم ، يحابيهم الطقس الذي كان صافياً ، ولو أنه انعطف فارس البرودة ثابتة . لقد كان صافياً جداً لدرجة أنه أمكنهم أن يروا صارياً خشبياً فوق أعلى نقطة للقمة الشمالية ! وعلى ذلك فالإشاعة التي سمعوها كانت صحيحة . لقد وصل المنقبون الآلاسكيون من فيربانكس إلى القمة على أي حال .

لقد ظهر فيما بعد أن المنقبين صعدوا من الثلاجة في يوم واحد دون الاستعانة بالأحبال أو فؤوس الجليد ، وكانوا يحملون معهم صارياً طوله ٤,٢ كيلومترات ، أمكنهم أن يغرسوه في أعلى نقطة للقمة الشمالية ، تلك القمة التي ظن بسرور وبراون أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتسلقها . حقيقة أنهم وصلوا إلى نقطة تبعد

٢٤٠ مترًا أو ٣٠٠ متر من قمة أعلى جبل في أمريكا الشمالية ، إلا أنه لم يفسد هذه الرحلة وحلاوة سبق كثيرة مثلها في تاريخ البشرية أجمع. ولا يدرى أحد السبب في اختيارهم القمة الشمالية ... وقد دخل في وهمهم أنهم صعدوا إلى القمة الحقيقية للجبل ، ويرى أنهم اختاروا القمة الشمالية عن قصد ؛ لأنه يمكن رؤيتها من موطنهم في فيربانكس في الطقس الصحو ، في حين لا يمكن رؤية القمة الجنوبية العليا من ذلك المكان.

شعر الدكتور ستاك ورفاقه بالخلاص عندما تبينوا أنهم غير مضطرين لتسلق القمة الشمالية لإثبات ما إذا كان أي شخص قد وصل إليها أم لا ، فمضوا في طريقهم خطوة خطوة حتى وصلوا إلى آخر درجة في الجبل العظيم. ولقد مرت بهم لحظات شعر فيها الدكتور ستاك أنه غير قادر على الاستمرار لكنه لم يستسلم على الإطلاق.

واتضح لهم أمر من الأمور ، فعلى الرغم من أن بعثة براون وباركر قد وصلت في العام الأسبق إلى ارتفاع يزيد على ٦٠٠ متر عن التاج الجنوبي للجبل ، إلا أنهم كانوا بعيدين عن القمة الحقيقية مسافة أكبر مما ظنوه بكثير.

وبدا لهم الميل الأخير ، الذي لم يقع بصرهم في أثناء قطعه ، إلا على جليد ، طويلاً لا نهاية له. غير أنهم وصلوا إلى تلك النهاية ولم يعد يقف إلى [illegible] العظيم ، لم يسبقه أحد ، ولو أن ذلك لم ينقص من عظمته شيئاً. لقد وصلت بعثة ستاك إلى القمة الحقيقية لجبل ما كينلي.

واستلقى المتسلقون المنهكون على الجليد بعد أن أدوا صلاة قصيرة للشكر. ثم أخذوا بعض الأرصاد لدرجة الحرارة وقراءات البارومتر ، وحددوا موقع باستخدام بوصلة منشورية ، والتقطوا من الصور العدد الذي سمحت لهم به أصابعهم المتجمدة ، ولم يهتموا بالاستمتاع بالمنظر والإعجاب به إلا بعد أن أتموا كل هذه الأعمال.



[illegible]

ولقد وصف الدكتور ستاك شعوره بالرهبة فى ذلك المكان العالى بعد أن صعد إليه بما يلى :

« إن أولئك الذين صبوا إلى أمنية عظيمة تكاد تكون متطرفة ، وتحققت هم تلك الأمنية حيثما لما كانوا ينتظرونه تماماً ، هم فقط ، الذين يمكنهم التوصل إلى الشكر العميق ، والرضا الذى يملأ القلب عند الوجود من فوق الجبل

ولم يكن ثمة شعور بالقهر أو أى أثر لذلك الابتهاج بالنصر الذى يعم البعض عندما يصعدون إلى قمة عالية لأول مرة ، أو انتباه إلى الحظ السعيد الذى ربما يصبح مئات من الأمتار أعلى من أولئك الآخرين الذين صارعوا وهزموا . إنما انتابنا شعور بأننا صحب شرف التعامل مع الأماكن العالية عن الأرض ، فلم يسمح لنا فقط برفع أعيننا المتشوقة إلى تلك القمم التى بقيت فى غموض وانعزال منذ بداية العالم ، بل سمح لنا أيضاً أن نقدم لها أنفسنا فى جرأة ونسود عليها فى قاعات عرشها التى كانت مغلقة حتى ذلك الوقت ، وسكنها وننظر من فوقها إلى ما تحتنا لنرى جميع الأشياء وهى منتشرة من خلال نوافذ السماء ذاتها »

وكان المتسلقون قد أخبروا جوني فريد عندما تركوه مع الكلاب فوق الثلاجة أنهم عائدون فى ظرف أسبوعين ، لكن مضت أربعة أسابيع ، وعندما وصلوا إلى المعسكر الأساسى كانوا قد تغيبوا ٣١ يوماً .

ولقد كان جوني الذى ناهز الخامسة عشرة أميناً على وديعته ، فعنى بالكلاب عناية طيبة ، وكذلك بالمعسكر فجعله جديداً . ولقد جلب هذا الصبى الصدى الذى كانت مدرسته الوحيدة هى القفار الموحشة ومدرسة الإرسالية ، النبل والشرف للجبل الذى لطخ اسمه إلى حد ما الدكتور كوك سبيل الخامعات

فقد كان جوني مع المستنفين الأربعة فوق الثلاجة عندما اكتشفوا أن النار تضطرم فى حيمتهم وأن مؤنهم قد فنيت ، وكان يعلم أنه لن يكون لديهم سكر أو لبن بعد انتهائهم من محنتهم فوق الجبل ، فترك نصيبه من السكر واللبن

الذى ترك له فى المعسكر ولم يمسه طوال الأيام الواحد والثلاثين التى قضاها وحيداً ، وظل السكر واللبن ينتظران المستكشفين المنهكين المتعبين إلى أن وصلوا إلى قاعدتهم .

وإنه لمن الصعب أن نصدق أن سعادة الدكتور كوك فى ادعائه الكاذب عن قهر جبل ماكينلى كانت فى عظمة سعادة جوني فريد عندما تنازل عن شىء من حقه لصالح الآخرين .



سر فرعون المفقود

اكتشاف قبر توت عنخ آمون :

لقد صرفنا الكثير من الوقت والتفكير والعمل في بناء مجتمعات بيوتها المتقنة ومكاتبها الحديدية وقطاراتها ومسارحها ومكتباتها ومصانعها ومرافئها . وينمو كل هذه المنشآت عتيدة صامدة ، حتى إننا نشعر أنها سوف تبقى إلى الأبد . ومن المستحيل علينا أن نفكر في أن تلك الأعلام قد يأتي عليها يوم تكون فيه مدفونة تحت الأرض ، وأن رجال المستقبل قد يبذلون جهداً عظيماً فوق بقايا عالمنا .

ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الشعور ذاته قد ساور الشباب الذى عاش في وادي نهر النيل في مصر القديمة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام مضت . من المحتمل أنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن إطلاقاً أن يختفي مجد ملوكهم ويُنسى ، كما أنه لا يمكن أبداً أن تندثر معابدهم وقصورهم وتفقد في الرمال .

كان المصريون القدماء شعباً نبيلاً معتداً بنفسه ، وكان من بينهم مهندسون

معماريون وميكانيكيون وفنانون عظماء . وعاش ملوكهم في أبهة من الذهب والجواهر لا نجد له مثيلاً في عالمنا المعاصر . وتعرض هذا الشعب القديم ، وتلاشى من بين ما في حصن أخفى من أعدائه . وبقى فقط أعظم آثاره وأقواها سداً ، أعتقها أطلالاً . بقيت للمؤرخين ليحلوا طلاسمها ، وللسياح لتثير العجب فيهم .

لم يستطع رجال العصور الحديثة بمجرد النظر إلى الأهرام العظيمة القائمة بالقرب من القاهرة ، والتي لم يمكن للرمال التي ظلت تهب عليها آلاف السنين أن تبليها أو تطمرها ، وأن تقول في بساطة : حسناً حسناً ! إن الأساس عن الغرض الذي من أجله أقيمت هذه الأشياء العظيمة ؟ ومن تخيل ذلك الذي يقيم بناء مثل هذا هنا في الصحراء ؟ أظن أننا سوف لا نعرف ذلك على الإطلاق !

لقد جمعت قصة هذا الجنس القديم والعظيم تدريجياً على مر السنين ، فوجدت بعض أجزائها في السجلات القديمة ، وفي ترجمة النقوش المحفورة على الأحجار والمباني المتهدمة ، وحتى على قطع الورق المصنوعة من النباتات المائية ، ومن تلك الوثائق كتب المصريون أنفسهم عن عاداتهم وتقاليد شعبهم وملوكهم .

وبدأ الناس ، بمر السنين ، يدركون أن دراسة حياة الشعوب القديمة وتواريخها ربما تساعدنا في المحافظة على مدنيتنا من الاندثار ، كما حدث لجميع الحضارات الأخرى . فبدأت دراسة أكثر عمقاً ، إلا أن الطريق إلى العصور التي ولت طريق مظلم وعر . فسنستمع إلى قصة مغامرة مثيرة لأحد الرجال في سر مصر .

كان جورج هربرت الخامس إيرل كارنارفون مغرماً بالبحث عن الآثار القديمة ، وكان دائماً ولوعاً بعلم الآثار . وبحلول عام ١٩٠٦ كان قد استقر به المقام في مصر حيث يمكنه تحقيق رغبته . وعلى بعد ٨٠٠ كيلومتر تقريباً من القاهرة على أعلى نهر النيل العظيم تربض بقايا إحدى المدن القديمة العظيمة ، نصف مدفونة في واد خال من الصخور الحمراء والرمال الذهبية ، تسطع عليها أشعة الشمس

الحرفة . تلك هي « مدينة طيبة » عاصمة مصر في عصرها الذهبي . ولقد أزيحت الرمال والأوساخ عن معابد الكرنك والأقصر العظيمة ، تلك المدينة القائمة على أنقاض طيبة القديمة ، أزيلت الرمال من عليها حتى ومن بعيد ليقف أمامها العالم مأخوذاً مذهولاً . إلا أن مدافن طيبة القديمة كانت حتى منتهى القرن العشرين تطوى أسراراً لم يكشف عنها الستار .

ولقد تركت المعرفة تدريجياً خلال الأعوام المائة والخمسين الماضية حتى أصبح معروفاً أن أهم مدافن طيبة يقع غرب النيل على بعد مسافة من مدينة الأقصر . كما أنه أصبح معروفاً أيضاً أنه عند موت أحد ملوك مصر ، أو فراعنتها ، كانت ممتلكاته جميعها تدفن معه .

ولقد كان بعض المستكشفين للمنطقة التي تحيط بطيبة ، سعداء الحظ بتحديدهم للمدافن القديمة . فتم تحديد ٢٨ مقبرة من مقابر الفراعنة الواقعة في وادي الملوك ، والتي يبلغ عددها ٣٠ مقبرة أو تزيد . كما تم الكشف عنها ، ووجد فيها مومات وتوابيت حجرية عظيمة وأوان فخارية وغير ذلك من الأشياء ، ووجد أن لصوصاً كانوا قد اقتحموا جميع القبور المكتشفة بدون استثناء ، وجردوها من أغلب الكنوز القيمة .

وكان اللورد كارنارفون ومساعده العالم الأثري هوارد كارتر يعتقدان أن قبر الملك الذي كان يعيش منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً لم يكتشف بعد . وعقد كارنارفون العزم على التركيز على محاولة العثور على فرعون المفقود . وكان هناك أمل ضعيف في أن اللصوص لم يصلوا إلى قبره ، حيث إن علماء الآثار المستكشفين لم يتمكنوا من العثور عليه .

كان هذا الملك شخصية غامضة لم يذكر لنا التاريخ عنه إلا القليل ، وحتى اسمه الذي نعرفه لأن أنه كان توت عنخ آمون، لم يكن مؤكداً تماماً عندما بدأ اللورد كارنارفون وهوارد كارتر البحث عنه . وكان معروفاً أنه مات شاباً ، وكان المعتقد أنه لم ينحدر من سلالة ملكية، وإنما أصبح ملكاً بزواجه من صغرى



هوارد كارتر لورد كارنارفون

كريمات الفرعون العظيم آخ إن آتن ، ولكن أين دفن توت عنخ آمون ؟

كان هوارد كارتر قد عمل من قبل مع عالم أثري أمريكي منحته الحكومة المصرية حق الحفر في وادي الملوك . ووجد في أثناء سيره في العمل وقتئذ قطعة أشياء عليها اسم توت عنخ آمون ، كان بعضها في قبر صغير في مكان مهمل من الوادي . وادعى مستر ثيودور دافيز الأمريكي أنه وجد قبر توت عنخ آمون ، لكن بدون ملك داخله ، وأنه قد نهب مثل القبور الأخرى .

وكان هوارد كارتر أبعد عمقاً . فقد كان واثقاً من أن القبر الذي وجده لمستر دافيز لم يكن قبراً ملكياً ، إذ لا يمكن أن يدفن أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة في قبر وضيع مثل ذلك . وأوحى اكتشاف بعض الأواني الفخارية

عثوره على المواد التي استخدمت في أثناء حفره ، ثم أوحى إلى كارتر بأن القبر الحقيقي لهذا الملك لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك المنطقة

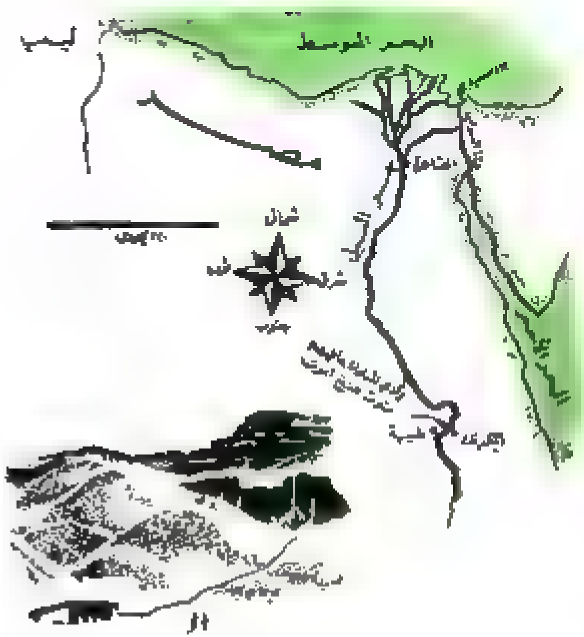
لنلق نظرة على وادي الملوك كما يرى من الممر الضيق الذي اتخذه كارتر على عاتقه . فإذا وقفت عند مدخل الوادي ترى أمامك حائطاً صخرياً كبيراً يرتفع فوقه قمة تعرف « بالقرن » . وينحدر من سفح الجدار الصخري إلى قاع الوادي قطع الأطلال المتناثرة ، والصخور ، والتراب . وتجد في بعض المنحدرات فتحات سدت بالأحجار ، هي التي عثر عليها على القبور وضعها ، وألقيت الأتربة التي نتجت عن الحفر في قاع الوادي

ولقد أدرك هوارد كارتر أن إزالة الأطلال والوصول إلى القاع الصخري الذي يجب أن يكون قد بني فيه القبر ، هذا إذا كان له وجود في هذه المنطقة على الإطلاق ، أدرك أن ذلك سيتطلب من الوقت السنين ومن الرجال المئات ترى هل كان هناك دليل يرجح احتمال وجوده في بقعة عن الأخرى ، نعم بعد ظهر هذا الدليل بعين كارتر المدربة الخبيرة

فلقد كشف الحفر طوال الموسم عن مجموعة من الأكواخ المبنية عند المدخل المؤدي لقبر رمسيس السادس الذي كشف من زمن بعيد . وفي مثل تلك الأكواخ كان العمال القدماء الذين بنوا القبور في الوادي يعيشون من آلاف السنين . ولقد أقيمت تلك الأكواخ على كومة كبيرة من صخور الصوان

وكان كارتر يعرف من خبرته أن وجود تلك الصخور يعني في الغالب وجود قبر غير بعيد . ولسوء الحظ كان الحفر في المنطقة المجاورة لتلك الصخور يعني التعرض إلى قبر رمسيس السادس ، ولقد كان لهذا القبر شهرته لدى زوار مصر . وعلى ذلك قرر كارتر الانتظار حتى ينتهي موسم السياحة ، وتأجل العمل في الموقع حتى شهر أكتوبر عام ١٩٢٢

وبحلول اليوم الثالث من نوفمبر كان عدد من أكواخ العمال القدماء قد أزيل . ولقد كانت جميعها متشابهة إلى حد كبير فاحتفظ بعدد كاف منها



للإبقاء على علاقتها الكريمة بمقبرة رمسيس . وكان تحت القمة التي أقيمت عليها الأكواخ طبقة من التربة سمك سمكها ٩٠ سنتيمتراً يليها القاع الصخري وحين بدأ العمل الشاق في إزالة تلك التربة الخافية المتربة

وعندما وصل هوارد كارتر إلى الموقع في الرابع من نوفمبر جاب ببصره فيما حوله يساوره شعور بالقلق ، لقد كان في الأمر شيء ، فبدلا من صلصلة الفؤوس والحوار بين ورئيسها وجلبة العمال المعتادة ، كانت شمس مصر تسطع على سكون تام ، إن أمراً قد حدث ، ترى ماذا وقع ؟ أهو أمر طيب ؟ أم سيء ؟ لقد اعتاد كارتر وقوع السيء من الأمور ، وكان ما يتوقعه

تفحص كارتر وجه رئيس العمال ، وهو على استعداد لتقبل أسوأ الأمور ، وكان قد تقدم للتحدث معه . ولكن بدا له ما سمعه عجيبً جداً بحيث يبعد أن يكون حقيقة ، فلقد علم ، أن العمال الذين كانوا يحفرون في تلك الصباح بالمعاول تحت موقع أول كوخ قديم كان عليهم هدمه ، صادفوا ما بدا لهم أنه درجة سلم نحتت في القاع الصخري للوادي . وقد لا يمكن أن يكون حديث الصنع ، بيد أن الأكواخ التي كانوا قد أزالوها من موضعها ، من الطبقة التي كانت تعلو تلك الكوخ ظلت قائمة في مكانها منذ وفاة رمسيس السادس ، أي منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام . فهل كارتر نفسه بأنه عثر أخيراً على شيء ، بعد كل تلك السنين من البحث

وعمل رجاله يومين في إظهار تلك البقعة متتبعين حدود الدرجة حتى ظهرت في كومة الصخور حروب الأبعاد لشيء ، كان واضحاً أنه طريق مدرج ، ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن ما كشف عنه هو مدخل قبر ! نعم ولكن كم من مرة تصبب الحفارون المتحمسون عرقاً في الكشف عن القبور ، ليجدوا أنها لم تكتمل أو لم تشتمل على الإطلاق

واستمر العمل في الحفر حتى تم الكشف عن ١٦ درجة هابطة في ممر يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار واتساعه ١٨٠ سنتيمتراً ، وحبس هوارد كارتر أنفاسه وهو



وبدت درجات سلم منحوت في القاع الصخري للوادي

يراقب عملية فتح الممر ، أما ما فعله عندما رأى أخيراً العلوى من المدخل محكم الإغلاق بالجبس والحجر ، فلم يسجل . لقد وجد أخيراً بعد سنين من خيبة الأمل قبراً حقيقياً . نعم وجد قبراً ، لكن من ؟ لقد كان هناك سبيل واحد لمعرفة ذلك

عندما كانت تغلق معظم قبور طيبة ، كانت تختم بخاتمين ، ولقد كان أحد الخاتمين الموجودين ، على جميع القبور في مدافن الملكية دليلا على وجود شخص هام جداً ، أما الخاتم الآخر فكان الخاتم الشخصي لفرعون المدفون داخل القبر . وبحث كارتر عن اسم ملكي في الأبواب التي كشف عنها ؛ فوجد النوع الأول من الأختام فقط

على أنه رأى في أثناء فحصه للجبس القديم في قمة الباب حيث ممعد

بعض البلاط . قطعة من خشب الصندل . والظاهر أنها كانت العتبة العليا للباب . وقد سمحت له الفرصة لرؤية ما يوجد خلف ذلك الباب .

كان قلب كارتر يدق بعنف في أثناء ما كان يثقب ثقباً في البلاط أسفل العتبة الخشبية حيث يمكنه توجيه حزمة ضوئية من مصباحه الضوئي . ويجرأ كارتر بعد عناء على متابعة الضوء بعينيه لكنه لم ير شيئاً في الداخل ، نعم لا شيء سوى الحجارة والزلط . إلا أن هذا اللاشيء بالذات قد يعني كل شيء ! فربما كان يعني أنه قد بذلت العناية القصوى في جعل دخول القبر أمراً صعباً . فلو لم يكن هناك شيء هاماً خلف الباب ما تكبد أحد مشقة ملء الممر من الأرضية إلى السقف بالأحجار ثم إغلاق الباب الذي يؤدي إليه .

حينئذ عرف كارتر أنه يحتمل أن يكون قد قام بأهم اكتشاف عمل في مصر ، فكان واضحاً أن ذلك القبر كان قبراً هاماً ، وأنه لم يتعرض لهجوم اللصوص منذ ٣٠٠٠ عام على الأقل . لكن ماذا عن القبر ذاته ؟ لقد كان فتحة صغيرة حقيرة ، بالمقارنة بقبور الفراعنة التي اكتشفت بمغالق الوادي . ربما لم يكن قبراً ملكياً على الإطلاق ، بل قبر نبيل من النبلاء دفن في الوادي بموافقة الملك . عاد كارتر إلى الباب ثانية وبحث مرة أخرى عن الأختام المعلقة له ، وشمل بحثه كل بقعة حتى أسفل مكان وصل إليه الحفر لكنه لم يجد شيئاً .

ماذا كان عليه أن يعمل ؟ لقد بدأ الظلام يخيم على المكان . ولم يكن من الممكن الانتهاء من تنظيف ما حول الباب في تلك الليلة . كما لم يكن في إمكانه ترك ما أخرجه من الظلمات إلى النور مكشوفاً ، فعمل على سد الثقب الذي ثقبه تحت العتبة العليا للباب وهو متأسف ، وكان لا يوجد حوله أحد غير العمال الوطنيين ، ثم أصدر أوامره بإرجاع كل شيء إلى مكانه .

وذهب كارتر إلى منزله في ضوء القمر الخافت ليأخذ قسطه من الراحة والنوم بعد أن اختار أكثر رجاله أمانة ليحرسوا الموقع في أثناء الليل . ولم يكن ذلك بالعمل الهين ، فقد كان لديه الكثير من الأمور التي تستدعي

التفكير فيها ، إذ لم يكن في إمكانه عمل شيء أكثر مما عمله حتى يصل اللورد كارنرفون من إنجلترا ، وعلى كل حال ، فكارنرفون كان المتكفل ببعثته ، وكان من حقه حضور فتح القبر .

ظل كارتر قلقاً طوال ليله يتقلب في فراشه ثم يذرع أرض حجرته ذهاباً وجيئة ، فكان يدرك أنه يجب عليه الانتظار ، وفي الصباح أبرق برسالة إلى كارنرفون وعاد إلى الوادي حيث انقطع لعمل شاق ومضن . وهو ردم موقع الحفر الجديد وتسوية أرضه كلها ، حتى إنه بحلول مساء السادس من نوفمبر كان من المستحيل على أي زائر ملاحظة أن المكان قد جرى فيه عمل على الإطلاق . إلا أن الأخبار كانت قد انتشرت ، فبدأ كارتر يتلقى برقيات التهاني وخطابات تثير الشك حول قيمة اكتشافه وعروضاً للمساعدة من جميع أنحاء العالم .

وفي الفترة التي انقضت قبل أن يتمكن لورد كارنرفون من الوصول إلى مصر وكانت قد زادت على أسبوعين ، عين كارتر مجموعة من المساعدين المهرة للمعاونة في الكشف عن القبر . أما عن القبر ذاته فقد بقي كما كان منذ ٣٠ قرناً حافظاً لسره الذي كان لا يزال خافياً . كمجموعة ورق اللعب المقلوبة التي يحتمل أن تكون الورقة المسحوبة منها « آس » أو « جوكر » ، كما كان كارتر يعلم تمام العلم .

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر بدأت عملية إعادة فتح مدخل القبر ثانية . بعد أن اللورد كارنرفون كان قد وصل إلى الأقصر هو وابنته الليدي إفلين هربرت عبر النيل من وادي الملوك . وبحلول عصر ذلك اليوم كان المدخل قد كشف عنه مرة أخرى . ولكن الحفر وصل حتى القاع في هذه المرة وأجرى البحث مرة أخرى عن الأختام ، لكنهم تمكنوا في هذه المرة من معرفة اسم توت عنخ آمون في أماكن عديدة . وللمرة الأولى سمح كارتر لنفسه بالتطلع بأنه وجد ضالته .

ومهما يكن من شيء فقد ظهرت بعض الاحتمالات غير السارة بدية .

فأولاً: بدراسة الباب المحكم الإغلاق تبين لهم أن فتحة تسمح بمرور جسم رجل كانت قد عملت في تاريخ سابق قد يكون في حدود ١٠٠ عام من تاريخ الدفن، ثم أحكم إغلاقها ثانية. إلا أن كونها أحكمت الإغلاق واضح، هذه الحقيقة بالذات، تعني أن بعض الأشياء الثمينة كانت لا تزال باقية داخل القبر.

كما كانت هناك حقيقة أخرى محيرة وغير مشجعة، فلقد كان ضمن القمامة التي وجدت على طريق السلم الذي يؤدي إلى الباب بعض أجزاء من أوان فخارية، وصناديق، وأشياء أخرى عليها أسماء نصف دستة من الملوك، وظن كارتر أنه من المحتمل أن هذا يعني أن ما عثر عليه كان مخبأً أكثر منه قبراً، مخبأً حفظت فيه ممتلكات فرعونية عديدة، ولو كان ذلك في عهد توت عنخ آمون، وإذا كان ذلك صحيحاً، فمن غير المحتمل بالطبع وجود جثمان توت عنخ آمون خلف الباب المحكم الإغلاق.

وبحلول الخامس والعشرين من نوفمبر كانت آمال «كارتر» قد ذهبت مع الريح، ففي صباح ذلك اليوم صورت الأختام وأزيح الباب المغلق أخيراً. وعندئذ تمكن الحاضرون من رؤية ممر هابط بدون درجات. وكان الممر — كما لاحظ كارتر من خلال الثقب — مملوءاً بالأحجار والأنقاض من الأرضية إلى السقف.

وشهد أعضاء البعثة شيئاً آخر. لقد كانت هناك علامات تدل على أن كارتر لم يكن أول من دخل في ظلمة القبر الغامض الذي يقع في نهاية الممر. فقد حفر أحد الأشخاص، في قديم الزمان، حفرة في الأنقاض الكائنة تحت السقف في الجانب الأيسر العلوي للممر. وفي أثناء خروجه ثانية ملأ حفرته وحصى، بدون أن ينجح في جعلها تظهر كما لو لم يطرقها أحد. هكذا كان الأمر. قبل كارتر أو رهطه لقد نهبت المقبرة كما حدث للأخريات، فماذا، إذن، يمكن أن يتوقع؟

وراقب كارتر عملية إخلاء الممر في أثناء مساعدته لعماله طوال ذلك اليوم

إلى منتصف عصر اليوم التالي. لقد كان العمل يسير ببطء، إذ كان عليه أن يفحص محتويات كل سلة أو عربة تخرج من الممر خشية أن يعثر على ما ينم عن شيء. وفي النهاية ظهرت حدود باب آخر يماثل تماماً الباب الخارجي. ومرة أخرى سرت في كارتر رجفة الإثارة. فربما يكشف الباب عند فتحه — لأول مرة في التاريخ الحديث — عن تفاصيل أبهر فترة في عظمة مصر وأقلها في المعلومات المعروفة عنها.

كان من الصعب على هوارد كارتر أن يصدق بعد ما لاقاه من خيبة الأمل مراراً كثيرة، أنه ربما يكون حقيقة واقفاً أمام الباب المؤدي إلى عالم آخر. وخيل إليه أن العمال كانوا يعملون ببطء غير معتاد في التنظيف حول الباب الثاني. وعندما خلص الباب بأكمله، في النهاية، ورآه أمامه لا يعوقه عائق، بدت له الخطوة التالية أعظم من أن يقوم بها. فربما تمخضت كل هذه التحضيرات عن لا شيء! وتوجه بنظره نحو لورد كارنارفون الذي لم يعتر تعابير وجهه أي تغيير.

وتقدم كارتر من الباب، وثقب ثقباً صغيراً في الركن الأيسر العلوي للباب، مستخدماً مطرقة وإزميلاً أمسكهما بيدين مرتعشتين. ووقع صدى صلصلة الطرقات في الغرفة المدفونة تحت الأرض، تلك الغرفة التي لم يسمع فيها صوت منذ ٣٠٠٠ عام.

وبعد أن نفذ الثقب إلى نهاية حدوده دفع كارتر قضيباً طويلاً من الحديد، ودفعه ببطء إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في الظلام فلم يلمس شيئاً، وهذا يعني أن الغرفة الواقعة خلف الباب، على الأقل، لم تملأ بالأتربة والحجارة كما ملئت الممرات المؤدية لها. وعندما أمسك شمعة مضاءة في الثقب ارتعش لهب الشمعة وتراقص لكنه لم ينطفئ، مما يدل على أن الهواء الكائن في الغرفة المغلقة كان صالحاً للتنفس على الأقل.

ووسع كارتر الثقب حتى أمكنه إدخال ذراعه فيه، وكان لا يزال ممسكاً

بالشمعة ، لكنَّ لهب الشمعة الذى ظل يتراقص ، لم يمكنه من الرؤية عندما حنى رأسه لينظر من خلال الثقب إلى جانب ذراعه . وعندما تعودت عيناه الضوء ، أى فى غبر وضوح أول الأمر ، ثم أكثر وضوحاً بعد ذلك — ما لم يره إنسان فى العصور الحديثة مطلقاً . هل كان وميض الشمعة هو الذى جعل كل شىء يبدو ذهباً براقاً ؟ لا ! إنه كان ذهباً فعلا

كان الذهب فى كل مكان . وحوش عجيبة من الذهب ! وتماثيل وصناديق مذهبة ، وقطع أثاث ذات أشكال غريبة وجميلة تتلألأ بالذهب ، وبعض عليها العاج والمرمر خلا مذهباً

غصت الكلمات فى حلق كارتر ، ووقف لا حراك به لحظة من الزمن ، ووقف الآخرون وراءه فى الممر حابسين أنفاسهم ، وحملق كارتر ثم سمع اللورد كارنارفون يهمس من ورائه ويقول : « هل يمكنك أن ترى شيئاً ؟ » .

وسحب كارتر يده من الثقب ومرَّ بها أمام عينيه . ولم يتمكن من النطق لحظة من الزمن . ثم قال وهو يعلم تمام العلم أن كلماته كانت لا معنى لها تقريباً : « نعم أشياء عجيبة ! » .

وعندما جعل ثقب الباب يزداد اتساعاً حتى يمكن لشخصين النظر من خلاله وقف كارنارفون وكارتر جنباً إلى جنب ، مأخوذين بشكل الكنز الذى ظهرا عليه بجماله . ولندع كارتر يصف لنا المنظر بكلماته

« أخذ المنظر يزداد وضوحاً بالتدريج وأمكن معرفة أشياء مفردة . ولكن ترددنا فى تصديق أعيننا . فأولا ، كان أمامنا مباشرة — وقد كنا مشعرين لهذا طوال الوقت — ثلاث أرائك مذهبة نحتت جوانبها على أشكال حيوانات غريبة تستطيل أجسامها بشكل عجيب لكى تفى بالغرض منها . ولكن رؤوسها كانت واقعية إلى حد مفزع ، إنها وحوش تبعث الفزع إذا ما نظر إليها فى أى وقت ، ورأيناها كما رأيناها ، بسطوحها المذهبة البراقة التى انتقضت من الظلام بمصباحنا الكهربى الصغير ، كأنما كانت تحت الأضواء الساطعة ورؤوسها رامية



وهج لهب الشمعة

ظلالاً مشوهة غريبة على الحائط القائم خلفها ، فإنها تكاد تكون مبعثاً للرعب ، واسترعى انتباهنا بعد ذلك إلى اليمين تمثالان يقفان إلى اليمين ، فقد كان تمثالين بالحجم الطبيعى لملك يلبس السواد ، مواجهين بعضهما بعضاً كأنهما حارسان ، وكانا مؤتزرين بالذهب ، ومتحليين بنعال ذهبية ، ومسلحين بالرمح والدرع ، وعلى جبهتيهما الحية المقدسة الحامية

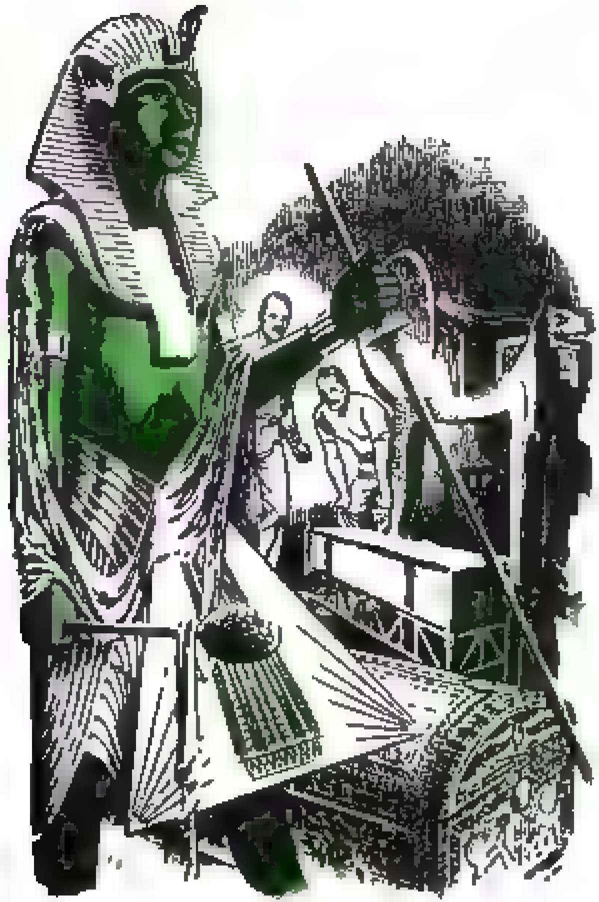
تلك كانت هى الأشياء البارزة التى أخذت بأبصارنا فى بادئ الأمر ، أما بينها وحولها وفوقها فكانت هناك أشياء أخرى لا حصر لها ، علب مزخرفات فائقة الحسن فى الطلاء والتطعيم ، وأوان من المرمر ، وبعض المقصورات الخشبية المنقوشة ، وأضرحة سوداء غريبة يتلصص من الباب المفتوح لأحدها ثعبان مذهب ، وباقات من الأزهار أو الأوراق ، وأسرَّة وكراسى جميلة النقش محفور

وعرش مطعم بالذهب وكومة من الصناديق البيضاء المصنوعة بأشكال ، وعصى من جميع الأشكال والتصميمات ورأينا تحت أنظارنا على عتبة الغرفة مباشرة كأساً جميلة من المرمر الشفاف على شكل زهرة اللوتس ، وفي اليمين كانت كومة غير مرتبة من العجلات الحربية المقلوبة ، ومن ورائها كانت تطل صورة أخرى لملك تتلألأ بالذهب والمرصعات

تلك بعض الأشياء التي كانت ممتدة أمامنا ، أما إذا كنا قد لاحظناها كلها في ذلك الوقت فلا يمكنني الجزم بذلك ، إذ كانت عقولنا في حالة من الإثارة والارتباك حالت دون التسجيل الدقيق . وفي هذه اللحظة خطر لعقولنا المشدوهة أنه لا يوجد تابوت أو أثر لمومياء بين كل هذه المخلفات من الأشياء التي أمامنا . وبدأ السؤال المحير عما إذا كان ذلك قبراً أو مخبأً غيره من جديد فأعدنا فحص منظر الذي أمامنا على ضوء هذا السؤال ، ولاحظنا لأول مرة ، أن هناك بين التمثالين الحارسين الأسودين [illegible] مدخلاً آخر مسدوداً ، لم يكن إلا مختوماً في اكتشافنا ، يدل على أن ما رأيناه كان مجرد مدخل ، وكان خلف الباب المحروس غرف أخرى . بل ربما كانت متتابعة وليس هناك أدنى شك في أننا لا بد واجدون فرعوناً راقداً في إحدى هذه الغرف

بعد أن تم هذا الكشف ، وبدأت عقولنا تدور عند التفكير في العمل الذي ينتظرنا ، فأغلقنا الثقب ، وأوصدنا البوابة الخشبية التي سبق وضعها في الممر الأول وتركنا موظفين وطنيين للحراسة ، ثم ركبنا حميرنا متجهين نحو المنزل وكان كل منا مشغولاً على غير عادته يخيم عليه سكون غريب .

وفي اليوم التالي ٢٧ من نوفمبر تم فحص شامل لما يؤدي إلى حجرة الكنز ، وتم فحص سريع للأشياء البديعة التي حوتها ، ولم يمس أي شيء منها أو ينزع إلا بعد أن تم تصويرها وترقيمها وتقييدها بالكشوف ، وتبين من هذه الدراسة أن معظم الأصناف التي كانت موجودة في هذه الغرفة كانت تحمل



وجدنا الكنز الذي اكتشفه

اسم توت عنخ آمون . وهنا أصاب اللورد كارنارفون وكارتر شبه تأكد أن ما كشفنا عنه حقاً قبر فرعون المفقود .

إن علم الآثار قاس في فرصه ونجاحاته ، ولا تسمح قواعده الدقيقة بخروج المستكشف الركض من شيء إلى آخر جرياً وراء أكثر الأشياء استهواء له .

وكان كارتر يود أن يعالج الباب الأخير الغامض دون تأخير ، ولكنه كان يعلم أنه لا ينبغي له عمل ذلك ، فيجب عليه أولا أن يعنى بالأشياء العجيبة المجموعة في غرفة المدخل ، وفي الغرفة الصغيرة الملحقة بها . لقد خلط اللصوص من ٣٠٠٠ سنة مضت أشياء المدخل وأشاعوا فيها الفوضى بشكل عجيب ، لكن الظاهر أنهم لم يسرقوا شيئاً ذا قيمة . وتطلبت العناية اللائقة بتلك الأشياء التي لا تقدر بثمن إقامة معمل في قبر خال قريب من الموقع . ودعت الحاجة بعد ذلك إلى خبير للتحقيق من الأشياء الرقيقة الحساسة التي أخرجت إلى النور والهواء بعد بقائها آلاف السنين في جفاف وصمت الظلمة الدفينة ، وحفظها وإصلاحها .

وقد كان كارتر عالماً حقيقياً . فقد كان له من الشجاعة والصبر ما يجعله يعمل ما يجب عليه عمله مؤجلا فرحته باكتشافه الجديد إلى الوقت المناسب . ولم تأت اللحظة العظيمة إلا في فبراير . في ذلك الوقت كانت غرفة المدخل والغرفة الملحقة بها قد أخليت تماماً ، وغربلت كل أوقية من تراب الأرضية خوفاً من أن يكون بها قطعة من المرصعات أو الجواهر أو قشور الذهب . ولم يترك إلا شيئان اثنان هما التمثالان الحارسان للملك على جانبي الباب الذي كان لا يزال مغلقاً .

وبعد ظهر يوم ١٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ اجتمع نفر قليل من الشخصيات الهامة فوق مدخل القبر بدعوة من المستكشفين ، ونزلوا يحدوهم الوقار إلى غرفة المدخل التي أخليت ووضعت فيها المقاعد . وكان قد بني رصيف في الطرف الشرقي للغرفة حتى يتمكن كارتر ومساعده المستر مس والمستر كالندر من الوصول إلى أعلى الباب المغلق . وفي الثانية والربع بعد الظهر بدأ كارتر بمطرقة وإزميلاً بيد مرتعشة وفتح من عتبة الختم منظر خاطف لقبر فرعون المفقود

وبعد عشر دقائق تم ثقب ثقب في الجدار وأظهر الشعاع الضوئي للمصباح الكهربي الصغير شيئاً يشبه حائطاً من الذهب البراق على بعد لا يزيد على ٩٠ سنتيمتراً من الباب المسدود بالحجر . وساد جميع الحاضرين شعور مثير عندما كانت تنقل الأحجار الواحد تلو الآخر وتنتقل من يد إلى أخرى حتى ينتهي بها المطاف إلى خارج الغرفة . فتهاوت الأحجار التي كانت تسد الباب ، وهبط السد تدريجياً . وبدا الحائط الذهبي البراق الذي كان منتصباً من أرضية الغرفة الداخلية المنخفضة عن عتبة الباب بحوالي متر ونصف متر في ظهوره كأنه يرتفع تدريجياً بهبوط السد .

ولم يعد ثمة أي تساؤل . فقد كان ذلك ، بالتأكيد ، الضريح الذي دفن فيه رفات الحاكم الصغير المفقود لتلك المملكة القديمة . أما ما كان لا يزال غير مؤكد ، فهو ما إذا كان فرعون نفسه لا يزال راقداً فيه ، إذ أن اللصوص كانوا قد زاروا هذا المكان ولو أنهم انصرفوا مسرعين على ما يظهر .

ووجد كارتر على عتبة الباب حبات عقد مبعثرة كانت قد سقطت من اللصوص في أثناء انصرافهم السريع . وكان من الضروري توقف العمل لالتقاط تلك الحبات المبعثرة ، فزاد ذلك من إثارة النظارة المشوقين الذين كانوا يتململون في مقاعدهم أمام ما يحتمل أن يكون أغنى اكتشاف اكتشف قبل ذلك في مصر .

وكانت الساعة قد أعلنت الخامسة عندما تمت إزالة كل شيء من إطار الباب ، فهبط كارتر إلى الغرفة التي أقيم فيها الضريح ، وتبعه اللورد كارنارفون والمستر لكاو مدير مصلحة الآثار المصرية ، وسرعان ما اكتشفوا أن أبواب الضريح كانت موصدة بدون أختام . وكان لا يزال من الصعب التكهن بالأضرار التي أحدثها اللصوص القدماء . وسحب الرجال يحبسون أنفاسهم والذين جعلهم وقارهم المتواضع أرفع من أن يعدوا في زمرة لصوص المقابر القدماء ، سحب هؤلاء الرجال المزاليج وفتحوا الأبواب التي انفتحت بسهولة ، على الرغم من ثقلها ، كما لو كانت قد أغلقت في اليوم السابق فقط .

وأخيراً أصبح الأمر ممكناً ، وتحققت أحلامهم ، ففي داخل المجموعة الأولى من الأبواب كان هناك ضريح آخر أوصدت أبوابه هو الآخر ، ولكنها كانت تحمل أختاماً غير مكسورة مما أثبت بدون شك ، أن الضريح الداخلي لم تطأه قدم منذ أن سجّي فيه الملك

وتبادل الرجال الثلاثة النظرات دون أن ينبسوا ببنت شفة ، فلقد كانوا يعلمون أن وراء الأبواب الذهبية يرقد جثمان شاب ، أمسك في حين من الأزمان بقضايا أمور الإمبراطورية المصرية العظيمة

لقد دفن زعماء توت عنخ آمون جثمانه في هذا المكان يحدوهم الأمل أن تجعل التعاويذ المقدسة التي أودعوها في قبره رحلته إلى العالم الآخر رحلة آمنة غير مزعجة . ودفنوا معه ، في هذه الرحلة أحب ممتلكاته إليه بصرف النظر عن قيمتها توجد في الغرفة الخارجية مقاصير فرعون ، وتماثيله ، وجواهره ، وقفازاته وعصيه وأقواسه ، وأسهمه ، وأرائكه ، وكراسيه وحتى عرشه الذهبي الذي لا نظير له . وهنا كانت مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد حية غير مخرّبة

وتحرك الرجال الثلاثة بعيداً عن الأبواب الذهبية مدركين ما يجب عمله قبل لقاء الملك نفسه . ففي أحد الأحيان القادمة يجب أن يفحص كل تفصيل من تفصيلات هذه المجموعة الهائلة ويدرس . وكان كارتر يعلم أن ذلك سيكون عملا طويلا مضنياً . لكن الأمر الذي لم يكن قد سبق إلى علمه ، هو أن صديقه ورفيقه الذي مدّ يد العون لإنقاذ ذلك الشيء من مخلفات ماضي السكنة ، سوف لا يلقي نظرة على وجهه . فلقد مات اللورد كارنارفون بعد أقل من شهرين .

ولم يكن هوارد كارتر يعلم بالصعاب التي ستعترضه لساوره الشك في أنه يعرف أي شخص من العصر حدثت بعد توت عنخ آمون على الإطلاق . فبعد موت اللورد كارنارفون وبسبب تدخل بينه وبين الصحافة ومسئولين المصريين بالإضافة إلى العمل في تحضير غرفة الدفن ، على التأخر سنتين قبل التمكن من فتح التابوت الحجري . وفي أكتوبر عام ١٩٢٥ بدأ الكشف عن القبر الذي كان



لقد تحقق حلمهم !

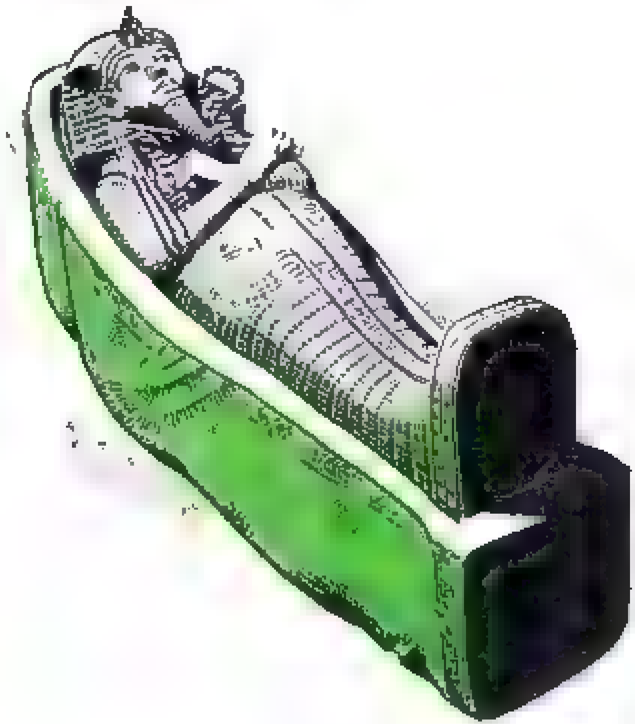
قد ردم حتى لا يمكن لأى شخص الوصول إليه ، من جديد

كانت الأضرحة الذهبية قد فككت ورفعت من القبر في أثناء شتاء ١٩٢٣ — ١٩٢٤ ، أما التابوت الحجرى العظيم المنقوش المحتوى على التابوت الذى كان يظن أن جثمان الملك كان لا يزال راقداً فيه ، فقد كان ثقيلا جداً يستحيل رفعه ، وبقى قائماً في وسط الحجرة ، وقد انتزع منه كل بريقه ورونقه

وكان الأمر يتطلب في هذا الحين مزيداً من الجهد ، عملا صعباً لرفع غطاء التابوت الحجرى وإزاحته ، ذلك الغطاء الذى كان يزن وزنه كثيراً على النقل وهنا جاءت نهاية البحث أخيراً . لكن لا يبدو أنها لم تكن النهاية الخاصة فلم يجد الباحثون في داخل الصندوق الحجرى العظيم سوى تابوت من خشب وجدوا تابوتاً جميلا مصنوعاً من صفائح الذهب ومرصع في زينته بصور الآلهة والتصميمات الرمزية ، وعلى رأس هذا التابوت المجسم كان يوجد قناع من الذهب المطعم صنع ليشبه الملك الميت

وزينت جبهة القناع بشعارات مصر العليا (الأفعى) ومصر السفلى (النسر) ووضع عليها باقة صغيرة من الأزهار ، كانت لا تزال محتفظة بألوانها وبعض رائحتها بعد مضى ثلاثة وثلاثين قرناً عليها . ومن المحتمل أن تكون باقة الأزهار هي تحية لأرملته . وضعتها بيديها الرقيقتين الصغيرتين . وكان من الصعب على المرء إذ رأى هذا المنظر الذى يثير المشاعر ، أن يتذكر أنه قد مضى أكثر من ثلاثة آلاف عام منذ انسحبت مليكة مصر الشابة عن جثمان زوجها على ضوء أقدامهم من القبر في شمس الوادى المحرقة

ومضت الأيام دون أن يفتح التابوت الداخلى إلى أن حل شهر نوفمبر عام ١٩٢٥ ، فاحتفل بفتحه في حضور فئة منتقاة من العلماء والشخصيات الحكومية الهامة . ولقد أخذ الكشف عن المومياء وقتاً طويلا ، إلا أن كل من كانت له يد فيه أحس بأنه يجرى أخطر الأعمال التى حدثت في ذلك اليوم من شهر نوفمبر ، ولم يعد ثمة شك في أن جثمان فرعون مصر الحقيقى هو الكنز الذهبى ،



توت عنخ آمون ملك مصر الصبي

إلا أنه لم يحدث من قبل على الإطلاق أن وجد ملك من ملوك مصر قد سجّي تماماً دون أن تمسه الأيدي.

لقد كان هناك في الواقع ثلاثة توابيت في شكل جسد موضوعة بعضها داخل بعض. وكان التابوت الثالث من الداخل، وهو الذي كان يحتوي على المومياء، مصنوعاً من الذهب الخالص اللامع سمكه حوالي ربع بوصة ($\frac{1}{2}$ سنتيمتر). أما التابوتان الخارجيان فكانا من الخشب المغطى بصفائح الذهب المرصع بقطع من الزجاج.

وعندما ألقى مستكشفو هذا الكنز العجيب بأنظارهم على وجه الملك الصبي، وجدوا أنه لا يزال يحتفظ بملامحه. ولا بد أن ذلك المنظر قد جعل الكثير من الزوار يحسون بالروابط التي تربط بين بني الإنسان بأجمعهم، بين أولئك الذين عاشوا في الماضي، والذين يعيشون في الحاضر. وبأن بوابة قبر توت عنخ آمون لا تؤدي بنا إلى التاريخ، إذ يجعلنا نحملق في قلب حياة صبي عاش وتنفس وراودته الآمال وأحاطت به المخاوف، مثلما يحدث لنا تماماً في هذه الأيام. ترى ماذا كان أهم شيء في ذلك القبر بالنسبة للمستكشفين؟ هل كان الكنز الذهبي ومستلزمات الحياة اليومية التي تكشف عن أسرارها، أم تلك الباقة من الأزهار الموضوعة على جبين الملك، والتي ظهرت حقيقية جداً حتى أنها بدت كأنها لا تزال تحتفظ بعبيرها الذي استمدته من يدي الملكة الشابة الحبيبة، وباللوحة التي تركتها عليها دموعها؟



٤

التنين الذي لم يمت

بعثة بيردن إلى جزيرة كومودو

من الأمور الساحرة عن المعرفة البشرية أنها لا تكتمل أبداً. ففي فترات معينة من حياتنا نميل بعضنا إلى الظن بأن معرفة اكتملت، بالنسبة لنا على الإطلاق، ولا يوجد ما نتعلمه أكثر مما نعرف. ومثل ذلك الشعور شبيه إلى حد ما بشعورنا، بعد أكلة ثقيلة، بأننا لا يمكننا أن نأكل أي شيء آخر، فإذا ما انقضت بضع ساعات أخرى، عاد إلينا الجوع مرة ثانية.

فإذا عنّ لك أن تعتقد أن جميع صور الحياة الكائنة على وجه الأرض قد تم استكشافها وتسميتها، فمن المستبعد أن تفكر في تنظيم بعثة لصيد التنين؛ وربما تجد أنه من الأسهل عليك أن تلجأ إلى كتب التاريخ الطبيعي، أو

موسوعات لنكتشف أنه لاوجود لتلك الوحوش الخيالية. هكذا يكون اكتشافك لو بحثت في كتب التاريخ الطبيعي القديمة التي نشرت منذ أوائل القرن السابع عشر.

وربما حقيقة أن كونراد فون جيسنر عالم القرن السادس عشر المشهور في التاريخ الطبيعي، الذي توفي عام ١٥٦٥ أفرد باباً كاملاً عن التنين في كتابه «تاريخ الحيوانات».

ولو أنك أخبرت الدكتور جيسنر أنك لا تعتقد أن التنين ليس له مكان في الكتب العلمية الحديثة، لنظر إليك بلا شك، نظرة دهشة واستغراب. ألم ير الدكتور كاردانوس الذي عاش في بافيا بإيطاليا، خمسة تنانين محنطة في باريس؟ لقد رآها بالتأكيد. وأغلب الظن أنها كانت تنانين صغيرة، إذ يشير الدكتور كاردانوس إلى أنها كانت صغيرة جداً.

ولقد طبع رحالة فرنسي، كان معاصراً للدكتور كاردانوس والدكتور جيسنر فعلا صورة هذا المخلوق الذي يسترعي الاهتمام. ولم يكن الحيوان الذي ظهر في الصورة غامضاً أو غريباً كما قد نتصور. بل كان في الحقيقة صورة مشابهة إلى حد كبير لوحش يرد ذكره في كتب التاريخ الطبيعي الحديثة تحت اسم التنين أو على الأصح تحت الاسم اللاتيني المرادف له Draco volans التنين الطائر.

لم يرجع علماء التاريخ الطبيعي في القرن السادس عشر الذين كتبوا عن التنين، من حقيقة أن المخلوق الذي كتبوا عنه، كان المفروض فيه أنه مخلوق ضخم من أكلة لحوم البشر، يشارك المردة في «نفخ النار». ولم يغير الأمر في شيء أن المخلوق الذي رأوه في عينات باريس المحنطة كان طوله أقل من ٢٥ سنتيمتراً بما في ذلك ذيله. فعلى كل حال لابد من أن التنين يخرج من بيضه، ولا يمكن إدخال تنين كبير في بيضة. وعلى ذلك فقد استقر رأيهم على أن العينات الباريسية كانت تنانين صغيرة. وبدت لهم حقيقة أنه لم يتأت لأي إنسان الحصول على عينة مكتملة النمو حتى الآن أمراً طبيعياً للغاية. فلقد كانت النتيجة التي انتهوا إليها أن التنين البالغ كان له من الذكاء ما يكفي لأن

ينأى بنفسه عن طريق الإنسان!

وما تأتى للعلماء أن يعرفوا المزيد عن تصنيف جنة الحيوان، فنحّوا التنين الضخم جانباً على اعتبار أنه خرافي، وأغفلوا ذكره في كتبهم. ولكنهم أبقوا على التنين الطائر فيها لأنهم كانوا يعرفون ما هو وأين يعيش. فلقد كان، ولا يزال، عظاءة «سحلية» صغيرة تعيش في شبه جزيرة الملايو وفي بعض جزر أرخبيل الملايو — جاوة وسومطرة وبورنيو.

ويوجد في الواقع، مخلوقات أكبر كثيراً وأقرب شبهاً بالتنين تعيش في ذلك الجزء من أستراليا القريب من الجانب الشرقي لأرخبيل الملايو. ونرى في صفحة (٩٤) صورة لإحدى تلك المخلوقات، التي يصل طولها إلى ٩٠ سنتيمتراً. وإذا كان أي شيء آخر أقرب منها شبهاً بالتنين فلابد أن يكون تنيناً.

لم يكن هناك من بأس في أن يعرض العلماء عن الفكرة الأسطورية للتنين، إلا أن الملايين من الناس في كثير من بقاع العالم كانوا يؤمنون بأنهم أعلم منهم وعلى كل حال فهل رأى العلماء كل شيء وذهبوا إلى كل مكان؟

لقد وجد تصوير واضح جداً لوحش لا تخطئ وصفه بأنه التنين على بوابة حصن بابليون مقرباً بتصوير وحش آخر كان المعروف عنه أنه حقيقي لا خرافي. واستخدم الصينيون صورة مقنعة جداً للتنين كشعار للقوة الإمبراطورية. وظل هذا الشعار على الراية الصينية حتى وقت حديث نسبياً. لقد قال أولئك الذين لم يكن عليهم أن يتصوروا عذر العلماء، إنه لابد من وجود سبب ما لاعتقاد الإنسان بوجود مثل هذا المخلوق.

لم تبدأ صورة علم الحفريات تتضح إلا في أوائل القرن التاسع عشر. وعلم الحفريات هو دراسة الكائنات الحية التي كانت موجودة في العصور الجيولوجية والتي حفظت بقاياها على صورة متحجرة. وقبل القرن التاسع عشر كان اكتشاف العظام الكبيرة التي لا يمكن أن تنسب إلى حيوان معروف، يؤخذ في الغالب على أنه برهان على وجود التنين. وقد ذهب الصينيون إلى حد استخراج



المخلوق الشبيه بالتنين الذي وجد في استراليا

العظام المتحجرة التي يوجد في الصين مستودع كبير لها ، ويسحقونها ثم يبيعونها كمسحوق عظام وأسنان التنين ، وكان الاعتقاد الذي ساد لزمن طويل أن هذا الدواء فيه الشفاء من جميع الأمراض تقريباً

وحقيقة إمكان معرفة تلك العظام ونسبتها إلى حيوانات الأزمنة السحيقة التي عرفها العلماء كما يعرفون الحيوانات الحية ، لا تثبت ، وهذا حقيقي ، أن شيئاً مثل التنين الكامل كان له وجود على الإطلاق ، إلا أن هناك بعض الصعوبات ، فنتصور أن أقرب تلك الحيوانات القديمة شبهاً بالتنين انقرضت قبل ظهور الإنسان على الأرض بملايين السنين ولا عشرات ، دون أن يحمل الإنسان أي ذكرى لها

ومهما يكن من شيء ، فنحن نعلم أنه حدثت عدة مرات خلال الأعوام العشرين الماضية أن التقطت شباك الصيد في الشاطئ الشرقي لأفريقيا سمكة طولها متر ونصف متر ويزيد وزنها على ٤٥ كيلوجراماً ، واعتقد فيها أنها انقرضت قبل ظهور الإنسان بملايين السنين

فلماذا إذن لا يوجد التنين ؟

ويبدو أنه من السهل القول بأن التنين لم يعش في البحر بل عاش على الأرض ، ولقد استكشفت الأرض بصورة أتم من استكشاف البحر على الرغم من اختراع كرة باثيسفير للغوص ، كما أنه لا يوجد على الأرض أماكن كثيرة تكفي لتنين له من الضخامة ما يسمح باستتاره أي شيء ، إلا غابة أمل ، أن يختبئ فيها

وعلى الرغم من ذلك ، فلقد كانت هناك فكرة صحيحة تنادي باحتمال اختفاء الحيوانات القديمة التي انقرضت بمواطنها ، في بقعة أو أكثر من الأجزاء غير المعروفة تماماً من العالم . وكان لا يزال هناك أماكن لم تستكشف في أفريقيا وأستراليا والهضاب الصخرية الواقعة على حدود بين فنزويلا وغيانا في أمريكا الجنوبية . ولقد استخدم السير آرثر كونان دويل تلك المنطقة الأخيرة كمسرح لقصته « العالم المفقود » تلك القصة الأخاذة التي ساعدت على إحياء الفكرة المنادية بأن حيوانات التنين أو ما هو أسوأ لا تزال تجوب الأرض

كانت قصة « العالم المفقود » رواية لا حقيقة ، وكانت رواية خيالية جداً ، ومهما يكن من شيء ، ففكرة بقاء مخلوقات من قبل التاريخ لم يكن قد ماتت كلية ، حتى في عقول العلماء

وفي عام ١٩١٢ تلقت هذه الفكرة ما كان يمكن أن يكون دفعة قوية لها في ذلك العام رسا فريق من صائدي اللؤلؤ في ميناء صغير في جزيرة لا تكاد تكون معروفة كلية من جزر أرخبيل الملايو . وكانت تلك الجزيرة عبارة عن صخرة بركانية يزيد طولها قليلاً على ٣٢ كيلومتراً ويبلغ عرضها نصف طولها ، وتقع شرقي ما يعرف بجزر سومباوا التي تقع على بعد ١٦٠ كيلومتراً جنوب سلبس ، وحوالي ٩٦٠ كيلومتراً شمال غربي أستراليا

وكان المعروف عن تلك الجزيرة قليلاً جداً في ذلك الوقت حتى إن مصورات « خارطات » الملاحة وأكثرها كانت مخطئة فيما يختص بشواطئها . وكانت لها



وقت قريب جداً من ذلك التاريخ مهجورة خالية من السكان كلية على أنه كانت هناك شائعات توحي ببقاء وحوش ما قبل التاريخ عليها ، أما ما إذا كان صائدو اللؤلؤ الذين يروون عام ١٩١٢ قد رأوا تلك المخلوقات الهائلة ، أو مجرد أنهم تحدثوا مع المواطنين الملايويين الذين سبق لهم رؤيتها ، فهذا أمر غير واضح . وعلى أى حال فقد نقل هؤلاء الصيادون قصص وجود التنانين إلى جاوه .

وكانت هذه القصص مقنعة جداً لدرجة أن المستر ا أوين الذى كان يعمل كمتحف بويتنزورج الحيوانى فى جاوة ، أرسل بعثة للبحث عن عينات من هذه الوحش الغامض ، واتضح أن الصيادين نجحوا فى مهمتهم ، إذ أن أوين نشر أول وصف لحيوانات جزيرة كومودو العملاقة غير المألوفة ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة على أن ما كتبه أوين لم يلق نصيباً كبيراً من الرأى

العام وسرعان ما تسببت الحرب فى نسيان ذلك الاكتشاف الطريف

ولم يحضر لأى شخص حتى عام ١٩٢٦ محاولة الإضافة إلى المعلومات السطحية التى نشرها أوين ، وفى ذلك العام نظم عالم شاب كان يعمل فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بعثة إلى جزيرة كومودو ، الغرض منها العودة بعينات من وحش ما قبل التاريخ لعرضه فى المتحف ، وربما حيله لو استطاعت عينات حية لحديقة الحيوانات ببرونكس .

تألفت البعثة من و . دوجلاس بيردن وحرمه وصائد ذى خبرة اسمه دى فوس قضى حياته فى غابات الهند الصينية ، وخبير فى الزواحف من كلية سميث هو الدكتور إ . ر . دن ، وبالإضافة إلى هؤلاء تضمنت البعثة مصوراً سينمائياً صينياً ورجلا صينياً آخر يؤدى جميع الأعمال التى توكل إليه اسمه تشو ، وفى حاوة صرحت حكومة المستعمرة الهولندية للبعثة بزيارة كومودو كى أعارت المستر بيردن قارباً تجارياً حمولته ٣٠٠ طن ، كامل المعدات ببحارته ليقطع به الرحلة التى تعرف من ١٩٠٠ كيلومتر ، من باتافيا إلى المضيق الذى يفصل جزيرة سمباوا عن فلورس .

وبعد صراع مع التيار المائى الذى بلغت سرعته ٢٠ كيلومتراً فى الساعة فى المضيق ، وصلت البعثة إلى مرسى على الشاطئ لكومودو فى صبيح أحد أيام شهر يونية ، فوجدوها جزيرة ترتفع بمقدار كبير نحو مجموعة مركزية من القمم البركانية ، وفيما بين القمم كانت توجد رقاع داكنة الخضرة من الغابات الكثيفة المحفوفة بالأشواك ، وكان الطقس معتدلا صافياً وفرح المستكشفون بما بدا لهم جنة العالم الطبيعية ، إذ كانت البقعة جميلة ومثيرة للاهتمام معاً .

إلا أن كومودو جزيرة نصف جرداء على الرغم من موقعها ، مغشاة فى بعض بقاعها مع بعض الأشجار القليلة فى مستوى سطح البحر ، وكانت أجزاؤها المنخفضة عبارة عن صخور بركانية حادة وقطع الصخرة متفككة ، فاستلزم العثور على مكان مناسب لإقامة معسكر الصعود إلى الأرض المرتفعة فى الداخل

وفي صباح يوم وصول البعثة ، عتكف مصر بيردن على المركب ، وحاول المصور العصبي التخلص من دوار البحر الذي أصابه . أما الدكتور فت ولستر دي موس اللذان كانا متحمسين للعمل فقد أقلعا نحو الشمال في حين أن الدكتور دوجلاس بيردن تسلق المنحدرات الصخرية ميمماً شطر الغرب تحت أشعة الشمس المحرقة .

ذكرت حرارة الشمس ، بعد الصباح المنعش البارد ، بيردن ، بأنه كان حقيقة في المنطقة الاستوائية . وأخيراً شعر به بالضعف وكانت أصابعه قد تسلخت وجلدته تحرق ، في مساحة شاسعة من الأرض الخضراء ، تناثرت فيها أشجار النخيل وأحراش الخيزران . وبينما هو هائم في مملكته المسحورة إذا به يكتشف اكتشافاً مثيراً ، وهو آثار واضحة الأقدام ضخمة تشبه إلى حد كبير بعض حفريات آثار الديناصور التي سبق له أن رآها في وطنه .

وعندما عاد دي موس وفت بأخبار وجود آثار مشابهة في أخرة الشاطئ من الجزيرة بدا لهما أنهما عثرا على « العالم المفقود » أخيراً . وكان عالماً عجيباً مزدحماً بمجموعة متعددة الأنواع تثير الدهشة ، من الحياة البرية مختلطة بعضها البعض اختلاطاً غريباً . فلقد آوت أحراش الغابة طيوراً متعددة الألوان بعضها معروف وبعضها الآخر لم يتعرف عليه المستكشفون ، كانت تغرد وتغني وتصفر وكانت الغزلان تعبر خلال أحراش الخيزران والخنازير البرية تركض على الكلأ الأخضر ، والببغاوات ذات الأعراف الصفراء تتصايح من أعلى الأشجار الباسقة ، والحمام المختلف الألوان يطير من مكان إلى مكان ، ولا يفوتنا ذكر وجود أنواع من الثعابين السامة أكثر في تعددها مما يمكن أن يوجد في أي مكان آخر من العالم .

وبينما كان بيردن يستكشف المنطقة التي يحيط بالبركة التي اعتزم إقامة معسكر البعثة الأساسي قربها ، إذا به يكتشف أثراً واضح المعالم لحوافر مشقوقة ضخمة ، وعرف أن ذلك يعني أمراً واحداً فقط ، هو أن تلك الآثار كانت

آثار حيوان من أخطر الحيوانات في العالم ، وهو الجاموس الهندي الكبير ذو القرون الطويلة بالنسبة للجاموس الشرس الموجود في رأس الرجاء الصالح بأفريقيا . ولقد جعل هذا التفكير المزعج ، فكرة الجاموس في الغابة وانتظار ظهوره الفجائي أمراً فيه أكثر من مجرد الإثارة . وفي الوقت ذاته كانت هناك أعمال أخرى يجب إتمامها .

وبينما كان بيردن يشق طريقه خلال حاجز الغابة المورق نحو بركة أخرى في الصخرة البركانية ، بحثاً عن موقع للمعسكر ، إذا به تصيبه الدهشة برؤية بطتين تطيران من سطح الماء بسرعة إلى أعلى . وقبل أن يتحطم صوت طيرانهما المفاجئ إذا به يسمع صوت اصطدام عنيف خلفه ، كان له من القوة ، كما يقول ، كما لو كانت غابة الخيزران الكثيفة قد انفجرت بأجمعها . وعندما قفز إلى الوراء إلى مكان خال من الأشجار رأى ذكر جاموس ضخماً يندفع نحوه مباشرة بأقصى سرعته . يتقدمه أنفه الواسع المنتفخين في الهواء وقرناه يمتدان إلى الوراء محاذيان جانبيه كأنهما دخان قطار سريع .

لم يضع بيردن وقتاً طويلاً في اتخاذ قرار عن عمله ، وقد كان لا يحمل معه قد ثقب من العصب تخترق جلده القوي ، فقفز بسرعة إلى الغابة وتسلق صخرة شديدة الانحدار . ومن العجيب جداً أن أعقب ذلك سكون تام . إذن لابد أن الثور كان قد توقف ولكن أين ؟ حبس بيردن نفسه ، فلم يسمع صوتاً إلا صياح السعدانات . وفجأة بدأ الوحش مقصف برعده مرة ثانية ثم توقف فجأة واندفع سطح هذه المرة ، نحو الغابة . وعلى الرغم من أنه ما سبق له رؤية إنسان من قبل على الإطلاق ، إلا أنه بدا كأنه مقتنع بأن ذلك الرجل لم يكن بالشيء الذي يثير قلقه .

وبعد بضعة أيام أتم بيردن تنظيمه للمعسكر الأول على الشاطئ . ثم أقلع ذات صباح لاصطياد غزال لإطعام خدمه الوطنيين الذين كان قد استأجرهم من أمبيرو ، رحلة جزيرة سانت أو المغروره . وبعد حصوله على الغزال صعد إلى أعلى الجبل متجهاً إلى منطقة القمم الصخرية التي رآها في أول يوم



وظهر بيردن بسرعة داخل الغابة

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف صباحاً عندما وصل إلى أسفل منحدر من الصخر المتفكك ، قد نمت فوقه خصلات من حشيش الكشف القصير وأشجار النخيل المتناثرة . وتوقف بيردن بعض الوقت للاستراحة ، وفي أثناء ذلك سمع صوت حتكاك وتدحرج صخرة تسقط من عل . وتحول بنظره فجأة صوب الصوت فرأى مصدره . إنه الشيء الذي قطع من أجل رؤيته ١٩٢٠٠ كيلومتر

سقط بيردن على ركبتيه وزحف إلى أعلى المنحدر متنقلا من صخرة إلى أخرى حتى وصل إلى نقطة أمكنه منها النظر ، دون أن يُرى . إلى رمس منحنى منذ ملايين عام ، على حد التعبير ، وهنا وجد نفسه أمام الرأس الضخم يتربح من جانب إلى جانب ، وكان لسانه الأصفر المشقوق يندفع إلى الداخل وإلى الخارج من بين فكين يبلغ طولهما ٣٠ سنتيمتراً أو أكثر صفت عليهما أسنان وحشية ، وتحرك غضروف الحيوان القديم في تثاقل إلى أسفل المنحدر تاركاً وراءه شمس الصباح ، يتقدمه ظل ضخم معتم يبلغ عشرة أمثال حجمه

وتفحص بيردن الوحش من خلال نظارته المعظمة وهو مختبئ في مكمنه فرأى جلده الخشن المتجعد الذي اسود مع الزمن وعليه آثار جروح خلفتها معارك القتال الكثيرة ، وهي به ، سطحه الحرشفي ، كأنه نابس من الصلب المسوح ، أما صحراء الذي كان عبارة عن فتحتين سوداوين في رأس ظهرت عليه سمات الشر ، والهدان لم ينقصهما إلا النار والدخان ليجعلاه تنيناً حقيقيًّا فقد كانا متسعين ، وبدت عيناه السوداوان المحدقتان كما لو كانتا تبحثان عن شيء ما بين الصخور

وظل بيردن يراقبه وهو مأخوذ به ، وأثناء المراقبة تقريباً ، قام الوحش بعمل أقرب ما يكون لما تصفه به التنين ، إذ اختفى ببساطة عن الأنظار . فزحف بيردن حتى حتى من خلف صخرة بحثه ولكنه لم يجد أثراً للتنين

وبعد ذلك بدأ بيردن ورفاقه في نصب الشراك مستخدمين الخنزير البرى



هذا هو ما قطع بيردن ١٩٢٠٠ كيلومتر من أجل رؤيته

كطعم له فأحيط الخنزير بأوتاد غرست في الأرض ثم ربطت مع بعضها وغطيت بأوراق الأشجار فيما عدا فتحة كبيرة فقط تركت في أحد الأطراف. ثم جردت شجرة قريبة من فروعها، وربط في أعلى جذعها حبل أمسك به خمسة عشر رجلا من الأهالي الأصحاء وجذبوه إلى أسفل. ثم ربط الطرف الآخر للحبل في زناد وضع أمام الطعم وعملت فيه أنشوطة دخية.

وعلى بعد بضعة أمتار من المصيدة أقيم مخبأ من الأعمدة الخشبية الثقيلة وغطى هو كذلك بغطاء خادع من الفروع والأوراق. ومن هذه النقطة كان على أفراد منهم أن يراقبوا الشرك ويلاحظوا اقتراب أي وحش ضخم منه. إلا أنه كان هناك عيب واحد، فقد كان واضحاً منذ البداية أن الزائرين الأول للشرك سيكونون من الإناث ومن الصغار، إذ أن الذكور الضخمة كانت حذرة، في حين أن تلك الإناث أو الصغار لا بأس بها كعينات علمية للدراسة التشريحية إلا أن الوحوش الضخمة الحقيقية هي ما كان الصيادون يصبون إليها

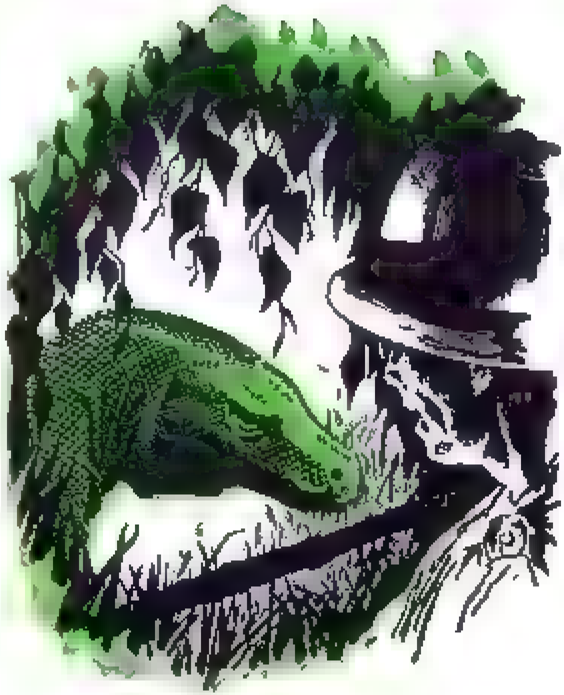
ولمنع الحيوانات الصغيرة من الوقوع في الشرك وأكل الطعم، ربط بيردن حبلا طويلا في الزناد، أوصله إلى مخبأ المراقبة حيث كان في الإمكان جذب الحبل لإغلاق المصيدة إذا ما اقترب التنين ذو الحجم المطلوب من الطعم.

وفي الصباح الباكر اتخذ الصيادون أماكنهم في الغطاء الخادع وبدأوا المراقبة والانتظار، ومن حسن الحظ أن العظايا الضخمة «التنانين» بدأت كما لو كانت صياداً كالطعم؛ إذ جذبت الثعابين التي يبلغ طولها ٣٠ سنتيمتراً والتي تفرغ في عضتها السم الناقع، وكذلك العقارب التي ليس في لسعتها شيء من الهزل ترحف إلى داخل المخبأ لتنضم إلى المراقبين، وكان الرجال يطلقون صيحات الذعر كلما ظهرت تلك الضيوف غير المرغوب فيها، ويضربونها بين الأوراق الجافة التي فرشت بها الأرض.

وعندما ظهر أول التنانين كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، ولقد كان تنيناً صغيراً يبلغ طوله حوالي ١٥٠ سنتيمتراً، وسار «أوساريت» بحذر حول الشرك يزفر في الخنزير، الطعم الذي كان قد أصبح ناضجاً جداً في ذلك الوقت وكان في الحالة المناسبة تماماً ليثير شهية التنين. إلا أن ذلك التنين الصغير أقترب منه دون أن يقع في الشرك.

وتلته عينة أخرى أكبر منه نوعاً ما، وكان مخوفاً له من ضخامة التنين ما يمكنه من حمل الخنزير البري بأكمله. ومهما يكن من شيء فقد كان الطعم مثبتاً تثبيتاً متيناً في الشرك. وفجأة توقف هذا التنين المتوسط الحجم عن الصراع ونظر إلى أعلى ولعابه يسيل من بين فكيه الشريرين. ثم خفض رأسه وأسرع إلى الغابة. وهنا قال بحذر بيردن: «آه، لابد أن ذلك يعني قدوم تنين أكبر».

ومضى نصف ساعة دون أن يحدث شيء، ثم بدأ الوطنيون الذين كانوا داخل المخبأ الخادع يهرجون في قلق شديد، كما لو كانوا تمكنوا من الإحساس



لقد كان يحملق مباشرة في وجه وحش مريع

شيء لم يقدر له التصديق . فنظر يرقب من خلال الجدار الحلق المخبأ ، وإذا به يصعر رعباً . لقد كان يحملق مباشرة في وجه وحش مريع من تلك الوحوش التي عاشت حوالي ٥٠ أو ٦٠ مليوناً من الأعوام دون أن تتغير تغيراً ، طبقاً لما تقوله السجلات الحجرية .

وقف الشيء في سكون تام وعيناه الكبيرتان السوداوان تحملقان بشراسة نحو مخبأ المخادع . ثم بدأ تحرك أقدامه ذات المخالب الطويلة بحذر ، وسار في تثاقل وحذر متجهاً نحو الشرك مارًّا بالمخبأ المخادع وشاغليه المرتجفين . وكان في أثناء سيره ينحني نحو الشرك ، برأسه المتأرجح ولسانه المشقوق يندفع باستمرار داخلاً خارجاً ، متفحصاً الصفحة التي كانت تؤدي إلى الطعم المغري .

وكان الصيادون يراقبونه من داخل المخبأ المخادع حابسين أنفاسهم وعلى استعداد لجذب حبل الزناد [illegible] عند باب النفق والحفرة . فلقد كان ذلك هو الوحش الذي يطلبونه ، وهو بلاشك أروع ما رآه أي إنسان متحضر على الإطلاق ، وكانوا يريدونه حياً ! إلا أنه كان دائماً كلما بدا عليه أنه على وشك الاندفاع والانقضاض على الطعم ، تراجع وحنى ينظر نحو الغابة . ترى إلى متى يمكن أن يستمر الحال على هذا المنوال ؟

وبينما يترددون في قصة عن البحث [illegible] في تلك اللحظة تماماً ، سمعت همهمة غير واضحة من بعد . حدث بعدها بقليل [illegible] ، ثم انقلبت إلى زئير مريع وخيل إلينا أن شيئاً يهبط فوق رءوسنا كما لو كانت طائرة منقضة علينا بآلاتها الدائرة بأقصى سرعة . لكنها مرت فوقنا ، وملأ الجو صوت ملايين الأجنحة . لقد كان سرباً من [illegible] من الأدغال مارًّا خلال بحثه على الحدائق . وخفت الصوت مرة أخرى إلى همهمة خافتة تكاد تكون مسموعة ، وخيم علينا بعد ذلك سكون لم تقطعه إلا حفيف الأوراق الخفيف فوق رءوسنا . كل هذا والشيء الكبير كان لا يزال في سكونه كما لو كان مفتوناً بالصوت الذي ربما لم يسمعه ومفاجأة وقعت الواقعة !

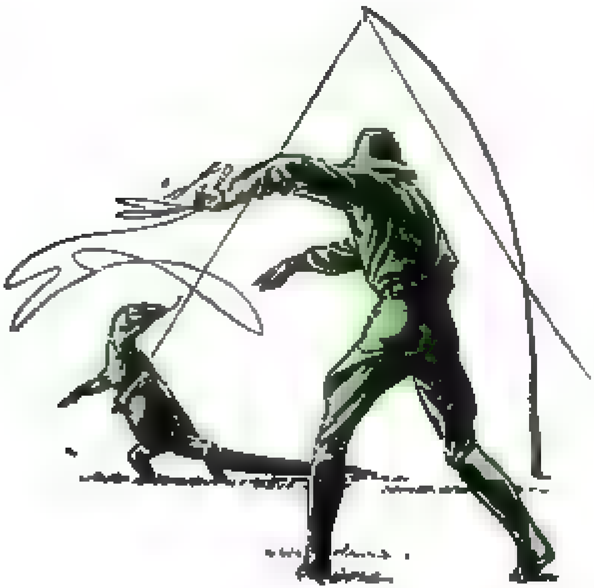
عبر الوحش المربع خلال فتحه لمصيده ، كما لو كانت الفكرة تعمل في عقله القدم طوال الوقت ، ومرّ في الأنشوطة « العقدة » المنزلقة وانقض على الخنزير الميت بفكيه الكبيرين فجلب بيديه إليه . وقد أخرجته الإثارة عن اتزانه ، وانطلق الزناد الذى كان ممسكاً بالشجرة المثنية وكانت الشجرة بدورها ممسكة بالحلقة المفتوحة التى تحيط الآن بجسم التنين وبرز من قوة انتصبت الشجرة فى الهواء وازداد الشد فى الحبل بإحكام الحلقة حول ذلك الجسم الثقيل وهزه هزاً عنيفاً رفعه من الأرض .

أخيراً ! تلك كانت الكلمة التى سمعت داخل الغابة حادة ، فيبب بهمة تم عن الخلاص المقدس بالشكر والعرفان ولكن الصيادين لم يقدروا وزن التنين الضخم حق قدره ، إذ عندما ارتد التنين ساقطاً نحو الأرض ، جذب معه الشجرة ثانية وانتزعها كما لو كانت عود ثقاب

عندئذ تقدم دى فوس « صائد الأدغال » حاملا حبلا عملت منه عروة فى طرفه يستخدم عادة فى صيد الوحوش ، وكان قد تدرب على استخدامه استخداماً لمدة خمسة واقترب بحذر من الوحش الهائج متفادياً ذيله الضخم وكذا به محقوفه المريعة ، ورمى دى فوس بالحبل عدة مرات ولكنه فشل فى إصابة الهدف فى كل مرة من تلك المرات . إلا أنه عاد ولف الحبل فى حلقة وحاول مرة أخرى

وانتهز دى فوس لحظة أطبق فيها الوحش فكيه الثائرين ، ونجح أخيراً فى إدخال عنق التنين الضخم فى الأنشوطة « عروة الحبل » ثم مال إلى الوراء وجذب الحبل فأحكم الحبة وربط طرفه الآخر فى إحدى الأشجار وما إن انتهى من ذلك حتى أسرع لمساعدة الدليل الذى كان يضرب بوحشية

ولما انتهى الصراع تقدم الوطنيون للمعاونة فى ربط ذلك الجسد القبيح فى عمود ضخم ووضعوا العمود على أكتافهم وساروا يشقون طريقهم مصحوبة ،



يتقدم دى فوس حاملا حبلا فى نهايته عروة

وهم يستمعون ويتهامسون ، عائدين إلى المعسكر يجرون وراءهم تيساً وزنه ١٣٥ كيلوجراماً .

وكان قد أعد لاستقبال الوحش قفص متين من الكتل الخشبية القوية غطى بالأسلاك الغليظة ، دفع فيه بصعوبة كبيرة . وعندما فك الوحش المروع من عقاله بان عليه أنه لم يقهر بعد . إذ جعل يضرب ويخبط في جوانبه في ثورة وغضب مما جعل آسريه يخشون عدم صمود القفص لثورته .

ولقد راودهم إحساس قوى بأن الوحش ، إذا لم يتمكن من الإفلات من القفص ، فإنه سوف يهلك نفسه في صراعه وسوف يصبح عاجلا أو آجلا للأسر وبذلك يمكنهم تصويره وقياسه عند حلول الصباح .

ذلك كان اعتقادهم ، ولكنهم عجزوا من خطئه عندما حل الصباح عندما ذهبوا ليطمئنوا على حال أسيرهم وكيف عاش ليلته ، وجدوا أن الملك المنشط الذي كان يغطى فتحة التنفس في أعلى القفص قد قطع كما لو كان خيطاً رفيعاً . لقد أثبت تنين كومودو العظيم الذى خرجت أسلافه سالمة من الحروب وتقلبات ملايين السنين أن ساعته لم تحن بعد .

ذهب أعضاء البعثة إلى عملهم بحماسة وقد زاد احترامهم لقوة غريمهم وحيله وسرعان ما نسوا على ضوء شواهد جديدة ما يجب عليهم أن يفعلوا به .

وذات صباح قامت مسز بيردن وذى فوس بزيارة المصيدة في الدغل إذ كانت قد أعدت باستخدام شجرة أصلب . وكان الطعم الذى وضع فيها غزالا بأكمله . وعندما وصلا إلى الفجاج المقابل للمصيدة رأيا من آثار دهشتهما . إذ لم تكن المصيدة مقفلة على الرغم من أن الغزال كان ممزقاً إلى نصفين ، وكوم الجزء الخلفى منه — الفخذان والأرجل والحوافر — في كومة واحدة . ولقد تحققنا من هذه الحقيقة في ظروف غير سعيدة عندما أسر غريمهما فيما بعد .

وانفصل ذى فوس ومسز بيردن ليبدآ بحثهما عن الوحش المريع في حذر ، إذ كان قد دخل الدغل ليهضم الـ ١٨ أو الـ ٢٣ كيلوجراماً من اللحم والعظام واتخذ ذى فوس الطريق إلى الدغل من الناحية المنحدرة

أما مسز بيردن فقد سارت في الاتجاه المضاد تاركة مدفعها أمام الفجاج ولم يكن ذلك من الحكمة في شىء . وفجأة رأت شيئاً يتحرك على حافة الدغل إلى يمينها ، وباختفائها في الحشائش المرتفعة شاهدت وحشاً ضخماً آخر يقفز في طريقه نحو المصيدة . فأصيبت بنوبة فزع عندما تحققت أنها كانت واقفة بين الوحش المريع وما تبقى من الطعم في المصيدة

وتمددت على الأرض مرتعدة خوفاً من أن يحدث لها ما حدث للغزال من قبل وحاولت أن تحزم أمرها على الخطوة التالية التى تتخذها بسرعة ، ترى هل كان يجب أن تجرى وبذلك تفلت من أكبر التنانين التى رأوها حتى ذلك الوقت ؟ أم كان يجب عليها الانتظار على أمل أن يعود ذى فوس إليها في الوقت المناسب ؟

ولندعها تقص علينا شعورها في تلك اللحظة الرهيبة : « جعل ذلك المخلوق لأشعث يقترب منى وهو يطوّح رأسه الوحشى بتثاقل من جانب إلى آخر ، وتذكرت جميع القصص الخيالية التى سمعتها عن تلك الوحوش المرعبة وهجومها على الرجال والخيول ، والتنانين ، وأنا أنصت إلى صريره القصير الذى جاء كنفحة ريح عاتية ، وأراقب عمل ذلك اللسان المتحرك الشبيه بلسان الثعبان ، وذى بدا كأنه كان يحس بالخوف الذى عرّانى ، ثانى شعور ليس من السهل على وصفه .

وكان ذلك المخلوق على بعد منى يقل عن أربعة أمتار ونصف متر ، وفاحت في أنفى رائحة الزواحف الفاسدة ، وكان قد فات الأوان لكى أقفز من مخبئى فأغمضت عينىّ وانتظرت

ثم فتحت عينى ، في الوقت المناسب ، على رأس ذى فوس يظهر أعلى

القتل ، وبلا ذلك وبعض ثم رصاصة استقرت في رقبة الوحش الضخمة ، وفي لمح البصر ، تدحرج مرتطماً نحو الشمس ، ومرة أخرى أدت الدقة وطلقتها ورقد الوحش ساكناً لا حراك فيه .

لقد تمكن سير كوموندو من الصمود لجميع الظروف وتغيرات الملايين العديدة من الأعوام . ولكن تعطش الإنسان للمعرفة ، وكذلك أسلحته القوية ، أثبتت أنها فوق طاقة ذلك الوحش القديم . وأدى الحكم العام للعهد الهولندية الذي كان يحكم جزيرة كومودو الصغيرة لبعثة بيردن بصيد ١٥ تنيناً للأغراض العلمية وعندما حل موعد الرحيل عن تلك البقعة الخصبة المثيرة للمشاعر كانت البعثة قد حصلت على تنين كامل النمو على قيد الحياة وضعا في أمان في قفصين محكمين وتضمنت مجموعتها أيضاً ١٢ تنيناً ميتاً حفظت بعناية وأعدت للعرض في المتاحف

ولقد أصبح واضحاً أنه لو كان الإنسان قد شارك تلك المخلوقات الخيالية في سكنى جزيرة كومودو لأي مدة رسمية ، لكانت انقرضت كما كان الاعتقاد السائد قبل عام ١٩١٢ ؛ وعلى أي حال فعندما وصل الفريق على الجزيرة في عام ١٩٢٦ كان لا يزال هناك العدد الوفير من التنينات الحية باقية عليها

وليس هناك من شك في أن مستعمرة وحوش ما قبل التاريخ العربية تزدهر الآن ، كما أنها سوف تواصل ازدهارها إذا تركت وشأنها

ما قبل التاريخ ؟ نعم إن تنين كومودو من وحوش ما قبل التاريخ حقاً ، ولقد بقي صامداً دون تغيير تقريباً منذ ما يعرف بالعصر الأيوسيني ، ولفظ الأيوسيني Eocene مأخوذ من الكلمة الإغريقية التي تعني الفجر وتوصف به الحقبة من الزمن التي بدأت خلالها الثدييات — أرقى أنواع الحيوانات — في حروب الأرض ؛ وربما نتساءل ، بالطبع ، عن الفائدة الممكن الحصول عليها من صناع الوقت والمال والمخاطرة بحياة الإنسان لكشف النقاب عن مخلوق من مخلوقات العهود السحيقة ، وما هي الأبواب التي تفتحها مثل هذه البعثة ؟ وهناك العديد



تنين كومودو

من الأجوبة على هذا السؤال

فالإنسان يهتمّ بمستقبله وكل شيء يتعلمه عن الماضي يساعده على تخمين أو تصور ما يتوقعه من المستقبل. ولتنانين كومودو أبناء عمومة بعض منها يعرفها في الصخور ، ويبدو أن الضخم منها – التي عاشت بعضها في أستراليا – لم تصمد مع الزمن وانقرضت. ولا غرابة من أن أي شيء يمكن أن نعرفه عن حيوان صمود كتنين كومودو سوف يلقي بعض الضوء على صمود الأنواع الأخرى أو عدم صمودها ، بل ربما كان أهم الأمور وأبهرها عن الاكتشاف العلمي ، هو الأسئلة التي يحملنا كل اكتشاف جديد تسألها .

وأهم سؤال يثار في حالة تنيننا – الكئيب من ناحية لكنه طريف من ناحية أخرى – هو : ما هي الظروف التي مكنته من الصمود على جزيرة كومودو ؟ فالجزيرة ذات أصل حديث نسبيّاً ، ومن المؤكد أنه لم يكن لها وجود عندما ظهر أول تنين على وجه الأرض . وليس هناك أي دليل على أن تلك الحيوانات سبق لها أن عاشت في مساحة أكبر من تلك التي تشغلها الآن ، إلا أنه لا بد وأن تكون قد عاشت في مساحات أكبر . فمن أين أتت إذن ؟ أين كانت عندما جعلت نفثات الحمم البركانية وقذائفها التي تسببت في انبثاق جزيرة كومودو من البحر ، الحياة مستحيلة بين سمباوا وتيمور ؟

ويمكن رؤية مجموعة من ثلاثة من تنانين كومودو في متحف التاريخ الطبيعي الأمريكي بنيويورك موضوعة في نموذج لموطنها في الهند الشرقية . ونحن عندما ننظر إليها كأننا ننظر في ماضي سحيق لنراها تحت أشجار النخيل ومن ورائها القمم البركانية الغريبة بأنها عدن السوداء . ونرى نتابع رحلة صعبة ونحن نرقبها ونتذكر أن هذا المنظر بالذات تقوم نسخته مخلوقات حية في أدغال كومودو التي تبعد ١٩٢٠٠ كيلومتر عنا ، حيث لا تزال الذكور منها ترفع رؤوسها لترقب مقدم العدو ، في حين تنهش الإناث مكوكها لترعة جثث الخنازير البرية الملقاة فيها .



القطب الشمالي : عدو وصديق

البعثة الكندية للقطب الشمالي ١٩١٣ – ١٩١٨

منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض وهو يحاول زيادة معرفته بالعالم وما يحتويه من أشياء . وكان السبيل إلى المعرفة سهلاً في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى صادف الأفكار غير الصحيحة للإنسان وحادت به عن الطريق الصحيح . وكانت النتيجة أن كان تقدم الإنسان نحو معرفة الحقيقة مثله أشبه بتقدم الضفدع في خروجه من بئر . فكان يرجع خطوة إلى الوراء ، كلما خطا خطوتين إلى الأمام .

ولم يحدث أن حادت الأفكار غير الصحيحة بالإنسان عن طريق السليم في أي ميدان من الميادين أبعد مما حدث به في محاولته لاكتشاف آخر قطعة للمعرفة عن المناطق القطبية

وليس سهلة على القطب الشمالي الذي وصل إليه المستكشف الأمريكي

الأدميرال روبرت ، بيرى فى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٠٩ والقطب الشمالى ، كما يعلم الجميع موقع ، وليس شيئاً كما أنه فى الحقيقة ليس مكاناً وإنما هو اسم يطلق على الطرف الشمالى للمحور الذى تدور حوله الأرض

وحتى القدماء الذين عاشوا من آلاف السنين كانوا يعلمون أن القطب الشمالى — مهما كان كنهه — كان على الجليد أما ما عرفناه ، حديثاً نسبياً فقط ، فهو أن الجليد الكائن على قمة العالم ليس ثابتاً ، بل إنه كتلة طافية ، اليوم هنا ، وغداً فى محيط يزيد عمقه على ثلاثة كيلومترات . ولو ظل الأدميرال بيرى جالساً على الجليد عند القطب الشمالى لاكتشف بعد فترة طويلة من الزمن أنه قد تحرك إلى مكان آخر ، إذ أن الجليد يتحرك .

وربما نكون قد زودنا معرفة عن القطب الشمالى منذ زمن الأدميرال ، إلا أن اكتشافه كان عمل رجل عظيم شجاع ولقد وصل إلى القطب لأنه تعلم كيف يسير على الجليد فى أقصى الشمال ، وهو عمل لم يتعلمه مستكشف من قبله بالقدر الكافى ، وكان ذلك العمل وسيظل نصراً عظيماً على الرغم من ضآلة القيمة العلمية لاكتشاف القطب

لم يكن القطب الشمالى هو الشيء الوحيد الذى جذب الناس إلى المنطقة القطبية ، بل كانت هناك ولا تزال أشياء أخرى ، منها اثنان لهما أهمية خاصة أولهما كان البحث الذى أخذ كولومبس عبر المحيط الأطلنطى ، وهو محاولة اكتشاف طريق بحرى من الشرق إلى الغرب أو بمعنى آخر من الغرب إلى الشرق أما الأمر الثانى فكان الرغبة فى العثور على أرض لم يسبق اكتشافها

ومهما كانت الوسيلة التى استخدمها الناس للوصول إلى أقصى الشمال فى استكشافهم للمنطقة القطبية الشمالية طوال قرون عديدة ، فقد كان على كل مستكشف أن يصارع عدواً رئيسياً واحداً — هو الجليد القاسى الأبدى فليس من المستغرب إذن أن يعتبر أغلب مستكشفى القطب ، الجليد الشيء الوحيد الذى يجب أن يقهر .

كان هذا الشعور أحد الأمور التى أثرت فى نظرة الإنسان لاستكشاف القطب ، أو لنقل لاستكشاف المنطقة القطبية فالجليد الأبدى يوحى لأغلب الناس بالقفر ، كما توحى به الصحراء تماماً ، ويوحى القفر بانعدام الحياة وكانت فكرة الناس عن الكيفية التى يصلون بها إلى المنطقة القطبية مبنية أساساً على الفكرة بأن الرحلة إلى تلك المنطقة تشبه إلى حد ما العوم تحت المياه الباردة مسافة بعيدة

وإذا كنت بصدد العوم تحت الماء فإنك تأخذ شهيقاً طويلاً وتمسك بالهواء فى رئتيك ، وسوف تتمكن من البقاء تحت سطح الماء بالقدر الذى يمده نفسك فقط . وقد ظن الناس أن المسافر إلى المنطقة القطبية يجب عليه أن يتزود بمقومات الحياة وأنه يمكنه أن يبقى على قيد الحياة فى أقصى الشمال بالقدر الذى مقداه مؤونته فقط .

والآن إذا أخذ أحدنا شهيقاً عميقاً وغاص تحت الماء ، ثم ارتطم بعائق أو حبس بين صخرتين فإن نفسه ينهار ويغرق ، وكذلك إذا حبس أحدنا فى الجليد القطبى ، كما حدث لجميع المستكشفين الذين استخدموا السفن فى وقت أو آخر ، فإن مؤنته تنتهى ويكون فى ذلك نهاية حياتهم

وعلى الرغم من نبوغ الإنسان فى إيجاد سبيل لعمل المستحيلات ، فإن المئات العديدة من الأرواح راحت فى الشمال نتيجة لحبس سفينة ، حد شهيقاً عميقاً واحبس نفسك ، فى الاستكشاف . ولقد تسبب هذا الاتجاه فى التفكير فى وقوع مأساة من أعظم مآسى المنطقة القطبية . والعجيب أن ما نتج عن هذه المأساة هو التطور الحديث لاستكشاف المنطقة القطبية الشمالية

فى عام ١٨٤٥ أقلعت السفينتان الحربيتان إربس و الرعب ، التابعتان للبحرية الإنجليزية من إنجلترا تحت أمر السير جون فرانكلين حاملتين ١٢٩ رجلا وكان الغرض من هذه الرحلة استكشاف طريق من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى خلال الجليد وعبر الأراضى المجهولة شمالى كندا وكان السير



وقفت السفينتان عند مدخل مضيق لانكستر

جون ضابطاً مرموقاً حكيماً وشجاعاً ، ورغم أنه لم يكن قوى البنية . وكانت سفينتاه ورجاله أقوياء ذوى خبرة وأخذ معه من المؤن ما ظن أنه يكفى خمس سنوات .

فى أواخر يوليه عام ١٨٤٥ شوهدت السفينتان من سفينة لصيد الحيتان عند مدخل مضيق لانكستر الذى يقع على مسافة تبلغ حوالى ١٢٨٠ كيلومتراً من شمال النهاية العلوية لخليج هدسون، و ١٤٤٠ كيلومتراً تقريباً شرق نهر بوفورت ومنذ ذلك الحين لم ير رجل واحد من مائة وتسعة وعشرين رجلاً مرة أخرى على الإطلاق اللهم إلا إذا كان الإسكيمو قد رأوهم . ولم يعثر على أى من السفينتين . ولقد عثرت بعثة أخرى قدمت فيما بعد على سجل يروى ما قامت به البعثة حتى أبريل عام ١٨٤٨ ولكن ما حدث لأفرادها الذين صمدوا حتى ذلك التاريخ لم يمكن معرفته إلا عن طريق الحدس والتخمين .

وتتابعت البعثات المنظمة للبحث عن فرانكلين لعدة سنوات بعد ذلك التاريخ ولكنها وجدت فقط آثاراً مبعثرة لبعثته . وعلى أى حال فقد أضافت

الباحثون إلى معرفة بالمنطقة القطبية الشمالية وسكانها أكثر مما كان يعلمه الناس فى خمسين عاماً لو لم يدفعوا للبحث عن البطل المفقود . وكانت نتيجة ذلك أن أسهم السير جون فرانكلين دون أن يعرف فى معرفة الإنسان عن العالم القطبى .

إلا أن المستكشفين ، وحتى أمهرهم وأكثرهم خبرة ، كانوا بطيئين فى الانتفاع من دروس الماضى والموت . وبقى الأمر كذلك حتى جاء قائد عظيم آخر وبعثة أخرى ، بعد مضى ٦٨ عاماً ، ليبين الطريقة التى يمكن أن تقهر بها المنطقة القطبية الشمالية وتقل مخاطرها . ومن الغريب أن البعثة الكندية للمنطقة القطبية ١٩١٣ – ١٩١٨ بقيادة فيلجر ستيفانسن التى وضعت نهاية لسياسة ، حل شهقاً عمقاً واحداً ، فى السفر على الجليد ، ولقد كانت هى أيضاً آخر بعثة أرضية عظيمة نظمت إلى المنطقة الشمالية .

كان فيلجر ستيفانسن شاباً من أصل أيسلندى ولد فى كندا ، وتعلم فى الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى الرغم من أن عمره كان ٣٤ عاماً فقط فى عام ١٩١٣ فإنه كان قد سبق له قضاء ستة أعوام فى المنطقة القطبية الشمالية حيث يعيش مغامراً . وقد تدرب فى شبابه ليكون عالماً فى الأجناس البشرية وعلم الأجناس البشرية هو الذى يهتم بالتاريخ الطبيعى للإنسان . ولقد قام فى رحلتيه الأوليين بدراسة أهالى المنطقة القطبية ، فاكتشف قوماً من الإسكيمو لا يعلمون شيئاً تقريباً عن حضارة الجنس الأبيض . وكانوا فى أغلب تصرفاتهم سالمين ، كما لو كانوا من مخلوقات ما قبل التاريخ .

درس ستيفانسن الإسكيمو لا ككائنات متوحشة ، ولكن كمخلوقات بشرية تمكنهم أن تعيش فى منطقة أصيب فيها الرجل الأبيض عادة بالفاجعة . فدرس طعامهم وطرقهم فى الصيد وبناء منازلهم وملابسهم وسبل ترحالهم . وقرر أنه إذا كانت تلك الأمور قد مكنت الإسكيمو من الحياة فى المنطقة القطبية الشمالية فإنها يمكن أن تعين الرجل الأبيض على الصمود والبقاء فى المناطق القطبية

وبمرور مدة بقائه بين الإسكيمو ازداد ما أخذه عنهم وكانت النتيجة أنه سرعان ما اعتاد المعيشة في المنطقة القطبية الشمالية شتاء أو صيفاً ، وسواء أكان الطقس جميلا أم رديئاً .

وعلى أي حال فلم يكتف ستيفانسن بما أمكنه أن يتعلمه من الإسكيمو بل ساعده عدم اقتناعه بمعتقداتهم وخرافاتهم البدائية على انتكار أفكار قال الإسكيمو عن بعضها إنها تجلب له الموت والعذاب . وباصطياده سبع البحر والدببة من البحر المتجمد شمال ألاسكا لم يجد سبباً لتصديق الإسكيمو عندما قالوا له إنه إذا ذهب بعيداً جداً عن شاطئ سوف لا يجد سبع البحر أو دببة .

وفي عام ١٩١٣ اقترح ستيفانسن تنظيم رحلة إلى المنطقة القطبية الشمالية تكون من أتم الرحلات العلمية تنظيماً ، ووضع الخطة بحيث تنقسم البعثة إلى قسمين ، يذهب أحدهما إلى أقصى ما يمكن شمالا عن الجليد أو خلاله للتحقق من وجود أرض يابسة هناك ، وكان على القسم الآخر أن يقوم بعمل مساحة ورسم خريطات ودراسة أحوال الأهالي ، وحياة الحيوان والنبات البحرية والبرية وكذلك دراسة الخامات المعدنية في المنطقة وأخذ الأرصاد الجوية وجمع أي معلومات أخرى مفيدة .

ولما كان جزء من المنطقة القطبية الذي أراد أن يعمل فيه يقع أغلبه في كندا أو في شمالها فقد وضعت الحكومة الكندية البعثة تحت رعايتها . وبعد الانتهاء من الإعداد الذي بذلت فيه عناية فائقة ، أبحر ستيفانسن من نوم بألاسكا في يوليه عام ١٩١٣ على ظهر باخرة كبيرة صحبتها سفينتان صغيرتان ، وأقلت السفن الثلاث فريقاً كبيراً من الرجال العلميين والبحارة ، كما حملت معها أدق مجموعة من المعدات لم يسبق أن اكتملت مجموعة مثلها لاكتشاف المنطقة القطبية الشمالية .

ولقد رسمت الخطة للرحلة المقبلة بعناية عظيمة بحيث كان هناك بديل لكل شيء ، فإذا حالت الظروف دون تنفيذ إحدى خطوات البرنامج كانت

هناك خطوة أخرى تتخذ بدلا منها في الحال .

ولقد وصلت مراكب تلك البعثة في وقت أسرع مما كان يتوقعه أعضاء البعثة ، فمضت كل من الباخرتين الصغيرتين « ألاسكا » و « ماري ساكس » وجهتهم نحو الشرق قريباً من شاطئ شمال ألاسكا ووصلتا إلى بقعة يمكن إقامة معسكر الشتاء فيها . ولم يكن للباخرة الكبرى « كارلوك » حظ الباخرتين الأخريين ، فلقد حدث أن انغرست عميقاً في الجليد في الأسبوع الثاني من أغسطس ولم تتحرك على الإطلاق بفعل الأثير ، ولم يعرف وقتئذ بالطبع ، أن الباخرة « كارلوك » قد انتهت ، ولكن كان المسلم به هو أنه كان عليها أن تمضي الشتاء في الجليد .

كانت تلك الحادثة ضربة قاسية ، ولكن حتى حدوثها كان قد أخذ في الاعتبار . كانت ضربة لأن أعضاء البعثة كانوا يتوقعون أن يتقابلوا في المعسكر الشتوي حيث تجتمع الفرق العلمية وتوزع المعدات فيما بينها . لكن ما حدث هو أن بعض الناس الذين كان يجب أن يكونوا على البر ، كانوا على ظهر الباخرة « كارلوك » في حين أن البعض الذين كانوا في المعسكر الشتوي فعلا انفصلوا عن معداتهم .

وكان من أهم الأمور الواجب مراعاتها هو توفير سبل الصحة والسعادة لأولئك الذين انعزلوا على ظهر الباخرة كارلوك . وكان ستيفانسن يعلم أن الوفير من اللحم الطازج يساعد على ذلك ، وحيث إن الباخرة انغرست في الجليد بالقرب من منطقة كان القائد يعلم أنها أرض صيد طيبة ، فاصطحب معه ثلاثة من أعضاء البعثة واثنين من الإسكيمو ، وثلاث زلاقات ، وشق طريقه فوق الجليد نحو الشاطئ ، وفي نيته ألا يغيبوا أكثر من أسبوع أو أسبوعين . وكان أحد الذين صاحبوا ستيفانسن في هذه الرحلة مصوراً فوتوغرافياً أصبح اسمه فيما بعد – السير هيوبرت ويلكنز – من الأسماء المشهورة في تاريخ المغامرين الشمالية والحربية .

وفي أثناء سير فريق الصيد في طريقه إلى الشاطئ هبت عاصفة مروعة

واضطر رجال الفريق للتوقف حتى مرت ، وعندما تمكنوا ثانية من النظر عبر البحر كانت الباخرة كارلوك قد اختفت ، ولم يرها أحد من فريق الشاطئ مرة أخرى ، هذا على الرغم من ورود أخبار عنها من عدة أماكن على ساحل الاسكا

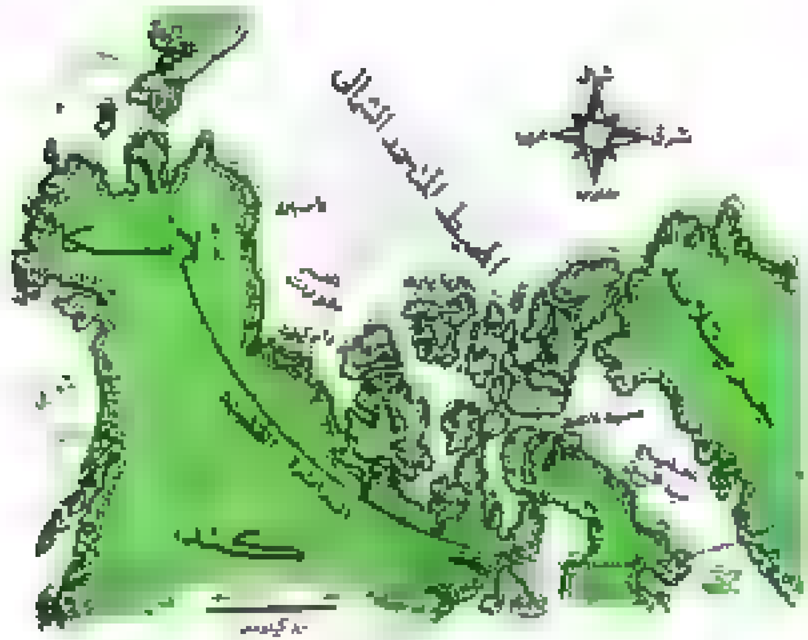
وكان ستيفانسن يعلم أنها ربما تظهر في الربيع لكنه كان يخشى ألا تظهر ولذلك كان موقفه كقائد البعثة بأكملها ، سلب منه معظم رجاله ومؤونته وأكثر معداته ، كان موقفاً صعباً جداً .

وكان نصيب ستيفانسن في عمل البعثة هو استكشاف بحر بيوفورت الذي يقع بين رأس بارى بالاسكا وجزر بارى شمال كندا وكانت مهمته هي البحث عن أرض جديدة في بحر بيوفورت ذاته وشمال أرخبيل بارى .

والآن وقد استقر رأيه على أن تكون كارلوك لا بد قضت الشتاء في مكان ما ، عقد العزم على تنفيذ خططه ولم يكن هناك داع للقلق على الرجال الذين عزلوا على سطح السفينة إذ كانت لديهم سبل الوصول إلى الشاطئ فوق الجليد إذا كانت السفينة قد تحطمت ، أضف إلى ذلك أنه كان لديهم الكثير من المؤن .

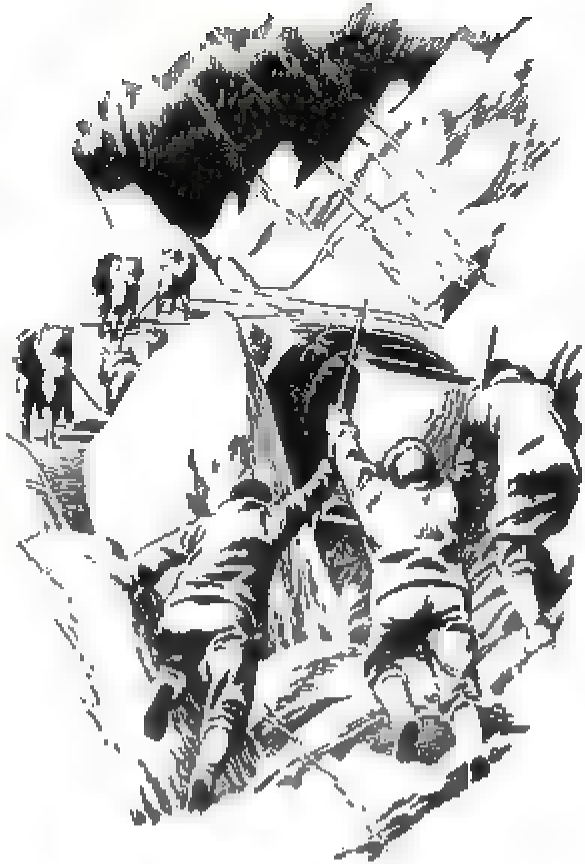
وتنفيذاً لهذا القرار قضى ستيفانسن خريف ١٩١٣ — ١٩١٤ وشتاءه في سفر على ساحل بحر بيوفورت للاسكا ، ملتقطاً معه في أثناء سفره رجالاً من الإسكيمو والكلاب والزلاقات والمؤن ، ووضع لا رسم خطط العمل لكل من قسمي البعثة وذهب فريق العلماء الذين اتجهوا جنوباً إلى المعسكر الشتوى على رغم أنهم لا تمكنهم التجربة من عمل خارجي حتى حلول الربيع ولم ترق هذه الخطة ستيفانسن في مواصلة استكشافه لبحر بوفورت ، إذ كان يعتقد عليهم أنه لم يكن يقدر على عمل أى شيء بدون سفينة لكنه كان أعرف منهم ، وكان على أهبة السفر عند حلول شهر مارس عام ١٩١٤ .

ولو أن شخصاً وقف في ذلك الوقت على الشاطئ الشمالي للاسكا ونظر عبر



القطب لرأى قدراً من الجليد لا انقطاع فيها تقريباً تحت سماء رمادية في لون الحديد الصلب مرقطة ببقع سوداء حيث كانت تنعكس المياه المكشوفة من السحاب إلا أن الجليد الذى كان يراه لا يشبه ثلج الانزلاق أو حبالات الشتاء إنما هو كيلومتر بعد كيلومتر من سلسلة جبلية مصغرة نشقت منها كتل ثلجية عظيمة وصل ارتفاعها إلى ارتفاعات المنازل ومثلت الانحدارات التى بينها مقطع مبعثرة غطاها الجليد المنحوت .

ذلك هو العالم المفزع الذى أزمع دخوله ستيفانسن وصحباه مزودين بزلاقة واحدة وستة كلاب قبل هبوب عاصفة عاتية فى ٢٢ من مارس عام ١٩١٤ ، وعلى الرغم من أنه كان لديهم مؤن تكفيهم مدة تزيد على الشهر بقليل وأن ستيفانسن قرر أن يعيشوا على الجليد عدة شهور إذا لزم الأمر فقد كان يعتقد أنه يمكن لفريق صغير من الرحالة أن يعيش أى فترة زمنية مهما كان طولها



في المنطقة القطبية تو زود الفريق بالملابس المناسبة والمعدات العلمية ومعدات الطهو والأسلحة النارية والذخيرة

وهناك كان أعضاء القسم الجنوبي من البعثة الذين لم يوافقوا ستيفانسن على رأيه ولم يترددوا في التصريح بذلك ، ولقد شعروا ، بل عبروا عن شعورهم علنا ، بأن قائدهم كان غير متزن قليلا . كما أنهم اعتقدوا أيضاً أنه مصمم على نوع من الانتحار غير المجدي بطريقة مسرحية

وكان ستيفانسن قد خطط قبل رحيله ورجال السفينة « النجم الشمالي » لمقابلته عند جزيرة بانكس ، تلك الجزيرة الكبيرة التي تقع بمحاذاة الشاطئ الشرقي لبحر بيوفورت ، ولكن لم يعد بعد بضعة شهور قرر معارضوه في القسم الجنوبي أنه من العبث إرسال السفينة ، فما الداعي إلى المخاطرة بسفينة جيدة في الجليد إذا كان فريق الزلاقة قد لقي حتفه فعلا ، وليس مؤكداً أنه قد عثر على أثر مطلق ؟ إنها كانت عملية حسابية بسيطة . لقد أخذ ستيفانسن معه من الطعام ما يكفي لمدة أربعين يوماً . وها هو قد مرّ على رحيله مدة أطول من ذلك بكثير فكيف يمكن أن يكون حياً ؟

لنلق نظرة على الجليد ونر ماذا كان يحدث للمستكشف « غير المتزن » ورفقه ، فعندما أقلع ستيفانسن من شاطئ ألاسكا صاحبته كلاب عديدة ورجال ذوو خبرة حملوا معهم المزيد من المؤن . وفي سابع من أبريل أرسل القائد تلك الفرق لتعود إلى الشاطئ على بعد ٨٠ كيلومتراً ومعها خطابات تحوي خططه . وجاء في خطابات أيضاً تعليمات « للنجم الشمالي » بأن تحمل الذخيرة والزلاقات ومعدات الصيد . وأن تبحر نحو الشمال على طول شاطئ جزيرة بانكس في أوائل الموسم ثم تبحث عنه في البحار الشمالية

ثم اتجه فريق ستيفانسن الدائم نحو الشمال الشرقي إلى المجهول ، وكان الفريق مؤلفاً من القائد نفسه ، وستوركر ستوركرسون ، وأولي أندرياسين وزلاقة تزن ٩٠ كيلوجراماً تحمل معدات وزنها ٤٥ كيلوجراماً تجرها ستة كلاب.

وفي أول يوم قطعوا مئات من الياردات فقط عندما وصلوا إلى شق

فى ثلج ظهرت منه المياه مكشوفة فاضطروا إلى التوقف . وفى اليوم الثانى قطعوا ذلك شىء ، ولكن الرجال والكلاب تمكنوا من قطع ميل واحد فقط صادفوا بعده شقاً ثابتاً فاضطروا لإقامة معسكرهم وانتظروا فيه . وفى اليوم الثالث قطعوا ثلاثة كيلومترات نحو الشمال ، لكن سقوط الجليد والريح العاتية التى زادت سوءه أجبرتهم على التوقف وإقامة معسكرهم

وبينما كانت الريح تزأر حول الخيمة الخفاقة كان المستكشفون الثلاثة مستلقين داخلها ينصتون لقرقعة الثلج المتشقق وارتطام الكتل الضخمة المتساقطة من الجروف المدفوعة بضغط الريح . وضمت تلك الجروف التى بلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان ٩ أو ١٢ متراً ترتفع حول الخيمة . وكانت فى بعض الأحيان قريبة جداً من الخيمة ، بحيث لو أن كتلة كانت قد سقطت من قممها المتحركة لسحقت الخيمة بمن فيها من كلاب ورجال وزلاقة بنفس السهولة التى يسحق بها دمية

وفى ذلك الظلام الزائر مرّ بالخيمة دب قطبى على بعد خمسة أمتار منها وعلى بعد متر ونصف متر من الكلاب . كما دلت عليه آثاره التى وجدت فى الصباح ، ولقد كانت العاصفة عنيفة لدرجة أن الرجال لم يشعروا بمرور الحيوان ولم تنبح كذلك الكلاب . والظاهر أنه لم يفطن إلى ما فاته من أكلة شهية

وبعد انتهاء العاصفة التصق الثلج بعضه ببعض بالتجمد ، ولقد جعل ذلك السير عليه أقل خطراً من ذى قبل ولو أنه كان أشبه بمحاولة عبور الغابة بالزلاقة على قمم الأشجار .

وكان الرجال الثلاثة يسيرون فوق البحر من تحتهم بالتقدم فى أثناء تقدمهم شمالاً ، فوجدوا أنه يزداد عمقاً كلما تقدموا ، حتى أصبح فى النهاية أعمق من أن يقيس جهاز سبر الأعماق الذى كان معهم والذى يبلغ طول سلكه ١٣٥ متراً فواصلوا سيرهم باذلين جهدهم لقطع أكبر مسافة ممكنة على الثلج قبل أن تتمكن شمس الربيع الدافئة الخطرة من جعل الثلج الذى تحت أقدامهم رخواً وعثراً



وأرغمهم على السير للمياه المكشوفة

ولحاجتهم إلى الإسراع لم يحاولوا صيد الحيوان لطعامهم إلا عندما كانوا يستهلكون ما تحمله زلاقتهم من المؤن .

وبعد مضى شهر وهم على الثلج حسب أرصادهم أنهم كانوا على بعد ٣٢٠ كيلومتراً فى عرض البحر منحرفين قليلاً إلى الشمال الشرقى من نقطة البداية ، ولم تكن هناك أى علامة على وجود أرض يابسة . وكان المحيط يتزايد فى العمق ، وبدا الثلج الذى كانوا سائرين عليه منحرفاً قليلاً نحو الشرق

وفى الخامس والعشرين من أبريل قرروا تغيير السير أثناء الليل والاستراحة فى أثناء النهار ، إذ لم تكن الليالى حالكة الظلمة ، كما أن ظروف السير على الثلج كانت أحسن تحت الشمس الساطعة . ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أن الربيع كان أخطر مما يسمح بمواصلة السفر الآمن على الثلج إذ ما شدة الله والشقوق المائية التى كانت تتجمد فى مارس بحيث يمكن عبورها بواسطة الزلاقة والكلاب أصبحت فى أواخر أبريل أن تلتئم إلا من قشرة ثلجية ضعيفة لا يمس

السير عليها .

وكان على ستيفانسن أن يحزم أمره في هذا المكان الذي يبعد ٣٢٠ كيلومتراً عن أي أرض حوله والذي لم تطأه قدم إنسان أو إسكيمو من قبل ، فهل كان ينبغي له أن يعود من حيث أتى ، علماً بأن الثلج كان يزداد رداءة يوماً بعد يوم ؟ أم يتجه شرقاً نحو جزيرة بانكس أو جزيرة برنس باتريك طبقاً لخطته التي رسمها من قبل ؟ وكان عليه في هذه الحالة الأخيرة أن يخوض في جزء من البحر لم تمخره سفينة من قبل، فهو بذلك مجهول حتماً ، ويصلح أن يكون مادة مناسبة للاستكشاف .

وكان قرار ستيفانسن هذا الذي لم يرتح إليه صاحباه ، يعني قضاء ستة أسابيع أخرى على الأقل فوق الثلج . وكان الطعام الذي جلبوه معهم يكفيهم لبضعة أيام فقط ، هذا ، علماً بأنهم لم يروا إلا القليل من سباع البحر والدببة منذ مدة . ومع كل ففي السابع من مايو ظهر سبع بحر بعيداً جداً ، وعلى ثلج رخو جداً ، إلا أنه كان سبع بحر ، وبدلا من إضاعة الوقت في محاولة ميئوس منها للحصول على سبع البحر جلس الرجال الثلاثة وأكلوا أكلة كبيرة من طعامهم الذي كان يختفي بسرعة ، لعلمهم أنهم كانوا مقدمين مرة أخرى على موطن لسباع البحر ولم تعد لهم حاجة إلى تخزين الطعام ثانية .

ولم تسنح لهم فرصة الحصول على أول سبع بحر إلا بعد أكثر من أسبوع ، لكنهم بحصولهم عليه توافر لهم الوقود من زيته والطعام من لحمه . وبعد ذلك الوقت لم يشعروا بالجوع مرة أخرى على الإطلاق . بل لقد اضطروا ، في الحقيقة ، إلى البقاء في المعسكر يوم ٢١ من مايو دون مواصلة السفر ، لأنهم كانوا قد أكلوا أكثر من اللازم في اليوم السابق !

والآن وقد أصبح الدفء يتزايد يوماً بعد يوم ، كانت شقوق المياه المكشوفة تزداد اتساعاً كما كانت تتزايد عدداً ، وقد كانوا يعبرون تلك الشقوق بلف الزلاقة في قماش سميك غير منفذ للماء صانعين بذلك قارباً من الزلاقة . أمكن

استخدامه في نقل الرجال والكلاب والمعدات على سطح الماء . وفي الثاني والعشرين من مايو ، وكان قد مضى عليهم شهران وهم فوق الثلج ، بدأت الكتل الثلجية تتحرك غرباً بعيداً عن الأرض التي كان يقصدها المستكشفون ، ولقد تمكنوا من السير شرقاً لفترة من الزمن فأفلحوا بذلك ، وبعد جهود كبير من الاحتفاظ بموقعهم كأنهم ساكنون .

وفي الرابع والعشرين من مايو وقفوا تماماً على جزيرة ثلجية كبيرة يبلغ سمكها ١٥ متراً ومساحتها حوالي ١٠ أو ١٢ كيلومتراً مربعاً ، وكانت محاطة من جميع الجهات بمياه مكشوفة واسعة وهائجة بدرجة لم تمكنهم من عبورها على الزلاقة الملفوفة بالقماش السميك .

وكان ستيفانسن يعلم أنهم يمكنهم ركوب تلك الجزيرة الثلجية العائمة إلى ما شاء الله دون أن يخشوا تصدعها ، ولكن ذلك يعني أنه كان عليهم أن يذهبوا إلى حيث ذهبت حتى تتجمد في بحر ثلجي في الشتاء التالي . ومعنى ذلك أنه كان عليهم قضاء الصيف بل ربما الشتاء أيضاً حيث كانوا . وكان عليهم أن يخزنوا في أثناء الصيف سباع البحر الكافية لتزويدهم بالطعام والوقود في زمن الشتاء المظلم حيث يستحيل الصيد .

وكان هناك الوفير من سباع البحر حولهم ولكنها كانت صعبة الصيد وكان هناك أيضاً ، كما هي العادة في وجود سباع البحر ، مجموعة من الدببة القطبية غير المسالمة ، دأبت على التسلل نحو الكلاب لاقتناصها . على أنه بحلول الثالث من شهر يونية كان الرجال قد قتلوا خمسة دببة .

وفي الخامس من يونية تمكن الرجال من عبور شق مائي نحو الشرق بعد أن انجرفت بهم الجزيرة ١٤٤ كيلومتراً بعيداً عن خط سيرهم ، ونقلوا عبر الشق ٤٠ كيلوجراماً من اللحم الأحمر والدهن إلى كتلة ثلجية أصغر . وتمكن الفريق من السفر المتصل في الاتجاه الجنوبي الشرقي ولو أنه كان بطيئاً ، وذلك بالسير في الاتجاه الشمالي الشرقي !



على أنه بحلول الثالث من يونية كانوا قد قتلوا خمسة دببة

وفى الثانى والعشرين من يونية ، وبعد مضى ثلاثة أشهر على تركهم ألاسكا ، نظر ستيفانسن نحو الشرق وظن أنه رأى حدود أرض يابسة . وفى اليوم التالى ظهر الشاطئ بوضوح فقد كان بعده عنهم لا يزيد على ١٦ كيلومتراً ! لم يكن ذلك أرضاً جديدة إنما كانت جزيرة الترويج وهى قطعة صغيرة من الأرض منفرعة من الشاطئ الغربى لجزيرة بانكس . وعلى الرغم من أن حدودها لم تكن بالشكل الذى ظهرت به على الخارطة فإنها كانت هى بالضبط ما كانوا يبحثون عنه .

وكان يغطى ثلج جزيرة الترويج مساحات من البرك المائية والجليد اللين العميق على التبادل ، وفيها خاض الرجال وعامت الكلاب وطفت الزلاقة . وكانت رحلتهم مضنية إلا أن ذلك الثلج كان قريباً من الأرض ، وبذلك كان مأموناً ، فلم يكن لينجرف بالمستكشفين ويأخذهم إلى حيث لا يرغبون الذهاب .

وفى الخامس والعشرين من يونية خطا الرجال الثلاثة نحو الشاطئ ، بعد أن قضوا ٩٦ يوماً فى البحر سافروا خلالها ١١٢٠ كيلومتراً . (ليقطعوا مسافة فعلية تبلغ حوالى ٨٠٠ كيلومتر) .

وهناك وجدوا الحشيش الأخضر والأزهار بوفرة كبيرة ، والطيور والنحل والذباب وآثار رنة أمريكا الشمالية . وما إن وطئت قدما ستيفانسن الأرض اليابسة حتى قتل عدداً من الحيوانات وأقام معسكراً فى مكان سقوطها . ولحم الرنة الأمريكية لذيذ الطعم للغاية ، ولقد لاقى استبدال سبع البحر والدب به ترحيباً واستحساناً .

ولقد قضى الرجال الثلاثة صيف المنطقة القطبية الشمالية الجميل كله فى صيد الرنة الأمريكية ، وتجفيف لحمها للأيام المقبلة ، ودبغ جلودها للملابس الشتوية . واستكشفوا جزيرة بانكس ومسحوا جزءاً كبيراً من شاطئها الغربى ، وكانت أنظارهم متجهة باستمرار نحو الجنوب حيث كانوا يترقبون مجىء « النجم الشمالى » لملاقاتهم .

وانتهى شهر أغسطس – وهو أحسن موسم للملاحة فى حذاء الشاطئ – دون أن تصل السفينة « النجم الشمالى » ويبدأ يصبح عدم وصولها على الإطلاق أمراً مؤكداً . واعتقد ستيفانسن أن شيئاً قد حدث لها ، وهو على علم بحقيقة الأمور وقتئذ ، فلم يخطر بباله ألبتة أنها لم ترسل لملاقاتهم على الإطلاق .

وفى أول سبتمبر بدأ الرجال القلقون الثلاثة السير جنوباً على شاطئ جزيرة بانكس متجهين نحو نقطة تعرف برأس كيليت ، حيث كان يوجد مأوى صالح للسفن إذ ظن ستيفانسن أنه إذا كانت السفينة قد صادفت بعض المتاعب فمن المحتمل أن تكون قد تركت لهم رسالة ، أو أودعت لهم المؤن فى مخبأ فى ذلك المكان .

ووصل المستكشفون إلى رأس كيليت فى الحادى عشر من سبتمبر ، وهناك ثبطت عزائمهم تماماً ، لكن شعورهم تغير عندما رأوا أثر قدم ، ولاحظوا ظهور



وإذا بالآلة التي كان ممسكاً بها تسقط من يده

سارية مركب أعلى الرأس المنخفض إذ كان في ذلك دلالة على احتمال تحسن الأمور . وعندما وقع نظر ستيفانسن على السفينة وجد أنها لم تكن هي التي أمر بإرسالها لمقابلته ، إنما كانت « مارى ساكس » إحدى السفينتين المخصصتين للقسم الجنوبي . وكانت قد سحبت من الماء وفرغت حمولتها . وأمكن رؤية رجال عديدين يقيمون منزلاً بالقرب منها .

وقد ظن ستيفانسن وهو يقترب من السفينة أن الرجال رأوه لكنهم استمروا في عملهم غير ملتفتين إليه على ما يظهر . فواصل اقترابه وهو في حيرة ، وفي النهاية رفع أحد الرجال بصره ، وإذا بالآلة التي كان ممسكاً بها تسقط منه وقد فغر فاه وجعل يحملق فيه غير مصدق ما يراه . وعندما تحقق ممن رآه صاح : « ستيفانسن حيّ . إنه هنا ! » .

والقول بأن دهشة الرجل أصابت ستيفانسن بالحيرة فيه تخفيف ، ألم يقل ستيفانسن إنه كان سيصل هناك حوالي ذلك الوقت . فما سبب رد الفعل الغريب إذن ؟

والحقيقة هي أنه لما كان القسم الجنوبي قد دخل في روعه أن ستيفانسن مات فكان من المنطقي أن يتولى القيادة الرجل الذي يليه ، وهو الدكتور أندرسن ، وتضمن ذلك إلغاء أوامر ستيفانسن وتعليماته ومن بينها إرسال « النجم الشمالي » إلى جزيرة بانكس حاملة الرجال والمؤن والمعدات . وأراد الدكتور أندرسن الاحتفاظ « بالنجم الشمالي » فأرسل « ساكس » بدلا منها ، هذا على الرغم من أن ستيفانسن كان يشعر أن رقاصيها التوأمين كانا يعدان من صلاحيتها للعمل في الثلج . وقد صدق شعوره ، إذ فقدت السفينة أحد رقاصيها في الثلج وتسربت إليها المياه لدرجة أنها كانت تفرغ ماءها لمدة أربعين دقيقة في كل ساعة ، وكانت أقصى سرعتها ثلاثة كيلومترات في الساعة فقط . وعلى ذلك فقد سحبها بحارتها إلى الشاطئ ، ناسين أنه ليس لديهم ألواح خشبية قوية لإزلاقها في الماء ثانية ، وكان في ذلك نهاية السفينة فقرر بحارتها إقامة منزل ليكون مأوى شتوياً

لم آملين أن يلتقطهم أعضاء القسم الجنوبي فيما بعد .

وحيث إن فريق الجنوب اعتقد أن ستيفانسن مات فلم يروا ضرورة لإرسال المعدات التي طلبها ، وكان هيوبرت ويلكنز أحد مؤيدي ستيفانسن في البعثة على ظهر السفينة « ساكس » ، ولكن حتى هو لم يصدق أن القائد يمكنه الصمود فعقد العزم على البحث عن آثار ستيفانسن على الشاطئ ، ولكن لم يكن يراوده أمل حقيقي في العثور على أي شيء .

وعلى الرغم من أن « ماري ساكس » كانت محملة بكمية من المؤن فإنها لم تكن لتكفي الفريق برجاله وكلابه طوال الشتاء بأكمله : وكانت هنالك حاجة إلى اللحم « الطازج » إلا أن الوقت كان بدأ يصبح متأخراً ، فحول ستيفانسن اتجاهه وذهب للصيد لم — ليطعم الملاث مجنبه !

وبعد قضاء الشتاء في رأس كيليت ، في إعداد الطعام والملبس للعمل في أثناء السنة ، بدأ ستيفانسن رحلته إلى الشمال ثانية ، ومرة أخرى استخدم طرقه في السفر ذاتها ، تلك الطرق التي ظل قسم الجنوب يعتقد (واستمروا في اعتقادهم سنة أخرى) أنها أدت إلى وفاته ، ولم يعد هو ورفاقه إلى البر حتى سبتمبر عام ١٩١٧ .

وظلوا في الميدان طوال المدة من مارس ١٩١٤ حتى ذلك التاريخ يستهلكون ما كان لديهم من المؤن حتى ينفد ثم يعتمدون بعد ذلك على المنطقة في الطعام والوقود والمأوى (في صورة بيوت جليدية) والملبس . ولقد اكتشفوا في الفترة ما بين خريف ١٩١٤ وخريف ١٩١٧ أراضي جديدة كثيرة ، من بينها الجزائر المعروفة الآن بأسماء بوردن ، بروك ، لويد ، وماكينزي كنج وميين ، ورسموا خارطات للشواطئ وغيرها مما كان سبق رسمه خطأ ، وتمكنوا كذلك من إثبات أن هنالك أرضاً حددت على المصورات « الخارطات » لم يكن لها وجود في الحقيقة .

وعندما ذهب ستيفانسن شمالا من رأس كيليت في ربيع ١٩١٥ عرف أن الباخرة « كارلوك » قد سحقتها الثلوج على بعد مئات الكيلومترات نحو الغرب ،

ولقد اعتقد أن بحارتها والعاملين عليها وصلوا سالمين إلى الشاطئ مستخدمين طرق السفر على الثلوج التي وضعها بنفسه ، ولم يكن يعرف بمأساة ركاب السفينة وفقد بعضهم الذي كان من المحتمل تفاديه ، إذ وجد هؤلاء الناس أنه من الصعب عليهم مسايرة الظروف التي كانت تبدو لستيفانسن كأنها جزء من عمله اليومي .

ولا يوجد في تاريخ السفر إلى المنطقة القطبية الشمالية سجل لعمل فذ يضاهي ما أحرزه ستيفانسن ، ولو لم تأت البعثة الكندية للمنطقة القطبية الشمالية في ١٩١٣ — ١٩١٨ ، قبل أن تصبح الطائرة على أهبة أخذ مكانها في أعمال المنطقة القطبية مباشرة ، لأحدثت طرق ستيفانسن ثورة في السفر إلى المنطقة القطبية . فلقد فتحت تلك الطرق السبيل إلى عالم زاخر للمعرفة بالأراضي القطبية .

ولا يبدو الرجال بعوزين على الإطلاق إلى عمل ما كان يعتقد أسلافهم استحالة عمله ، بمجرد ما ينقشع عن عقولهم ضباب الخرافات والعقائد التي لا أساس لها ، وحتى لو أضافت الاستكشافات والمكتشفات قدراً ضئيلاً فقط في كل مرة لمعرفة الإنسان ، فإنها لا تزال تبرهن ، كما فعل ستيفانسن على أن المستحيل ليس خارجاً عن متناول الإنسان .

